علـــــى درب الحـــــــــــــــياة
مـع
ألِـكْسي كـاريـل

تعريب وإِعداد
أَديب مصلح

طبعـــة ثانـــية

دمشق –2000

من هو أَلِكْسي كاريل ؟

وُلِد أَلِكسي كاريل سنة 1873 في قرية قريبة من مدينة ليون الفرنسيّة، ومنذ صباه برز لديه ميل إِلى العلوم الطبيعيّة، فدرس الطبّ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين، عمل في مستشفيات ليون، ثمّ عكف على إِجراء أَبحاثٍ طبّيّة لفتت إِليه الأَبصار، وكان،آنذاك، يؤمن بالتشكّكيّة العلميّة والعقلانيّة الواقعيّة، ولا يُلقي بالاً إِلى أَيّة نظريّات فوقيّة أَو دينيّة.

و في الثلاثين من عمره، أَي عام 1903، وكانت معجزات لورد ما زالت تشغل الرأي العام، رافق قطاراً يُقلّ مرضى مُيمّمين شطر لورد، رافقه عرَضاً، إِذ حلّ، في ذلك، محلّ زميلٍ له تعذّر عليه السفر في اللحظة الأَخيرة، وكان يحدوه، في قبوله هذه المهمّة، الفضول العلميّ فحسب. وقد اضطرّ، خلال تلك الرحلة، إِلى السهر على مريضة مصابة بداء عنيد متأصّل، كان قد قادها إِلى حافّة الموت الذي توقّعه لها الطبيب الشابّ، حتّى قبل وصولها لورد. ولكن، خلافاً لتوقّعاته، شفيت المريضة فور وصولها إِلى لورد، شفاءً خاطفاً، نهائيّاً، مذهلاً، يستعصي على الطبّ تفسيرُه.

و قد زلزل هذا الحدَث كيان أَلِكسي كاريل، وقلب تفكيره، كما أَنّه دفع بحياته في منحى جديد، إِذ إِنّه، التزاماً بالأَمانة العلميّة، وضع تقريراً دقيق الموضوعيّة عمّا شهد في لورد، ونشره في إِحدى صحف ليون تحت عنوان " الرحلة إِلى لورد "، ممّا لم يَرُقْ للأَوساط السياسيّة والجامعيّة والطبّيّة آنذاك، فحُمل على التخلّي عن مركزه، وقصد كندا فالولايات المتّحدة الأَميركيّة، حيث وضع مركز روكفيلر تحت تصرّفه مختبراً، تمكّن فيه من المضيّ قُدُماً في أَبحاثه الطبّيّة التي كان قد باشرها في فرنسا. وقد أكسبته هذه الأَبحاث شهرة ذائعة، وجائزة نوبل في الطبّ عام 1912.

عام 1914 قفل عائداً إِلى فرنسا، حيث فاجأته الحرب العالميّة التي اشترك فيها، ثمّ استأنف أَبحاثاً عن السرطان.

عام 1935 نشر كتاباً قيّماً بعنوان " الإِنسان، هذا المجهول " حلّل فيه أمراض الحضارة الحديثة، وكان له صدى مدوٍّ.

ثمّ أَكبّ، بمشاركة زملاء له، على وضع أُسُس علمٍ يكون بمثابة " علم الإِنسان "، متحرّرٍ من قيود الاختصاص الضيّق وحدوده، وكفيلٍ بتناول قضايا الإِنسان بكلّ تعقيداته، وبجميع عناصره، وطاقاته، وتطلّعاته.

و قد عانى خلال السنوات الأَخيرة من حياته من آلام جسديّة ونفسيّة حادّة، توجّس، من خلالها، دنوّ أَجله، فراح يدوّن خواطر عزم على أَن يودعها وصيّته إِلى العالم، ويُضمّنها خلاصة خبراته العلميّة والإِنسانيّة، ويبثّ في تضاعيفها إِيمانه بأَنّ الإِنسان كائن متكامل، فكراً

وجسماً وروحاً، بحيث لا مفرّ من تضافر هذه العناصر جميعها، بقيادة الروح، كي يحقّق الإِنسان ذاته، ومهمّته الإِنسانيّة. غير أَنّ الأَجل قد فاجأه عام 1944 قبل أَن يضع اللمسات الأَخيرة على الصيغة النهائيّة لهذه الخواطر، التي عمدت زوجته إِلى نشرها عام 1950 تحت عنوان " خواطر في نهج الحياة ".

و كان قد عمد، في سنواته الأَخيرة أَيضاً، إِلى تدوين بعض خواطره في " يوميّات " و" تأمّلات "، كما كتب صيغة نهائيّة لمقال له عن " الصلاة ".

و يسرُّنا أَن نقدّم، فيما يلي، تعريباً كاملاً وأَميناً لكلٍّ من " الرحلة إِلى لورد " و"الصلاة "، بالإِضافة إِلى مقاطع أَخّاذة من خواطر أَلِكسي كاريل.

أَديب مصلح
1984

لورد ...

" لورد " قرية فرنسيّة قابعة في أَحضان جبال البيرنيه.

ظهرت فيها السيّدة العذراء، عام 1858، لفتاة فقيرة، في الرابعة عشرة من العمر، تدعى " برنديت سوبيرو "، في حنيّة مغارة تُعرَف بمغارة مسَّابييل، أَضحت، فيما بعد، وحتّى اليوم، مزاراً يؤمّه بلا انقطاع أُلوف الحجاج من شتّى أَصقاع العالم.

توالى ظهور العذراء ثماني عشرة مرّة ما بين 11 شباط و16 تمّوز عام 1858، وأَثناء أَحد هذه الظهورات وصفت العذراء نفسها بأَنّها سيدّة " الحبل بلا دنس " وفي نفس المناسبة فجَّرت نبعة، إِلى جوار المغارة، ما زال يسيل منها، مع الماء العجيب، دفق من النعم الغامرة، والأَشفية الخارقة.

يحجّ إِلى " لورد "، باطّراد، مئات أُلوف المؤمنين، فيعودون منها بإِيمان متأجّج، وطعمٍ للحياة جديد، وقد يعودون، أَيضاً، بشفاء سقمٍ مستعصٍ على كلّ طبّ.

الأَشفية العجيبة التي ما انفكّت تمنّ بها " عذارء لورد " لا تحصى. وقد اعتمدت الكنيسة عشراتٍ منها اعتبرتها " عجائب " بعد التثبّت من صحّتها، بالبراهين العلميّة المستفيضة القاطعة، ومن استحالة تفسيرها تفسيراً ماديّاً.

إِنّ السماء ما زالت، في الأَرض، حاضرة، تتفاعل، في حنان، مع الإِيمان الصادق.

أ. م.

الرحلة إِلى لورد

عام 1903 قام أَلِكسي كاريل برحلته إِلى لورد وقد عُثر، بين أَوراقه، على هذا التقرير الذي وضعه في صيغة الغائب، وسجّل فيه ما اختبره آنذاك، مستعيراً اسم ليراك، الذي يكاد لا يخفي شخصيّته الحقيقيّة (إِذ ما هو سوى اسمه معكوساً).

صَفَر القطار، فطفقت النسوة، بأكمام بيضاء ومآزر بيضاء، تلوّحنَ بمناديلهنّ من نوافذ الحافلات، فيما كاهن شيخ كان يعدو إِلى جانب القطار، ليدلّ فلاّحاً هزيلاً، كاد يفقد صوابه، على المكان المخصّص له.

لقد كان هذا الكاهن هو مدير الرحلة، وقد حيّاه لويس ليراك، وشدّ على يده بحرارة، وساعده على الصعود إلى مقصورة كتبت على نافذتها كلمة (إِدارة).

و تحرّك القطار، ثمّ انطلق، وقدَّم المديرُ الدكتورَ ليراك معرّفاً به لرجل دين ساكن السحنة مبتسمها، ولم يكن هذا الأَخير سوى النائب الأَسقفيّ العامّ الذي كان الكردينال رئيس الأَساقفة قد تنازل فأوفده ممثّلاً عنه في هذه الرحلة إِلى لورد، ثمّ استقرّ كلٌّ بمكانه.

و قد أودع ليراك، في مكان أمين، محاليل الكافئين والمورفين والأَثير، وكذلك محقنة بريفاز، وكانت هذه كلّها تمثّل صيدليّة السفر التي ترافقه.

في تلك العربة، في الدرجة الثانية، كانوا أربعة: المدير، والنائب الأسقفي العامّ، وإِزاء ليراك امرأةٌ متقدّمة في السنّ، ترتدي تنّورةً حريريّة جميلة، وتجلس جامدة، وكان رجلا الدين يكلّمانها في احترامٍ يخصّ به الإِكليريكيّون، عادةً، الأَتقياءَ الأَغنياء. كانت تدعى السيّدة دي ر. وفي الشبكة التي تعلو رأسها كانت تتراكم عدّة حقائب موشّاة من الكتان. كانت تداني الرابعة والخمسين من العمر، ذات محيّا حسن، زهريّ اللون، مهيب، ويدَيْن سمينتين، زادت أصابعهما تورُّماً الخواتم التي ازدانت بها ؛ لا ريب أَنّها كانت زوجة رئيس مؤسّسة خيريّة، أو أحد المتـــنـــفّذين في " الوطن الفرنسي ".

أَمّا النائب الأُسقفيّ العامّ فقد وضع قفّازين من الحرير الأَسود، وأَخرج من حقيبته قلنسوة مخمليّة مبطّنة بقماشٍ بنفسجيٍّ جميل، وتعمّم بها، ثمّ فرد الصحيفة المحلّيّة المحافِظة، واستغرق في مطالعتها مشاركاً جيرانه، بين الفينة والفينة، وبصوت هادئ مرتاح، ما كانت توحيه له هذه القراءة من خواطر. في إِزائه، كان مدير الرحلة، الأَب ب. والعرق مازال يتصبّب من وجهه، يتحسّر لتركه اثنين من الحجّاج، اللّذين، فيما يبدو، لم يُفسَح لهما الوقت للصعود إِلى عربتهما.

كان التقشُّف يطبع قسمات ذلك الكاهن: أَخاديد عميقة كانت محفورة على جانبي أنفه، منحدرةً حتّى فمه، وكأنّها تشدّ إِلى أسفل ملتقى شفتيه ؛ أَمّا ذقنه فكانت تنبسط، مُربَّعةً،حادّة، تحت فم من غير شفاه، مبهم، وكأنّه قُدَّ بقسوةٍ، وعلى عجل. ولكن تحت قوس حاجبَيْه المرتفع قليلاً بدت عينان زرقاوان صافيتان طيّبتان، كعيني كلبٍ أليف، تكادان تطفوان على مستوى رأسه، ويتجلّى بهما ذلك المحيّا القاسي، مشعّاً بألقٍ عذبٍ،هادئ. ذلك التعبير، الذي ينمّ عن بساطة مطلقة، لا يمكن الوقوف عليه إِلاّ في عيون الأَطفال، أو بعض الرهبان، أو في عين أخٍ، حارس دير، مدفونٍ في أَعماق ديره منذ سنوات طويلة. لقد كانت له عينا قدّيس يكفي تعبيرهما لتحويل سحنة ذلك الكاهن المبتذلة، الخالية من الذكاء، ولكي تسبغ عليها جاذباً وأنساً ؛ كانت جبّته المخضرّة عند مستوى الأَكتاف، يغشاها الغبار. كان يخاطب النائب العامّ في تواضع جمّ، وعلى غرار مدام (د ي ر)، كان يدعوه " صاحب السيادة ".

كان القطار منطلقاً بكلّ سرعته، في اتّجاه الجنوب، وكان الطقس حارّاً، فيما غيوم كبيرة بيضاء تعدو في السماء، عاكسة نوراً عالياً قاسياً. وكان عصر ذلك اليوم من شهر أَيّار شاقّاً على نحو ما تكون عليه أَكثر أَيّام تمّوز ثقل وطأة، وكان شريان كبير متعرّج يخفق في صدغ الأَب (ب) الذي كان يمسح عرقه بمنديلٍ ذي مربَّعات.

أَمّا النائب الأسقفيّ العامّ فقد شبك يديه على صدره وأطبق جفنَيْه، في حين بادر ليراك إِلى تصنيف ما كان قد جمع من ملاحظات حول بعض المرضى، قبل بدء الرحلة، وإِلى الاطّلاع على ملفّات المرضى الآخرين، وقد أوكلها إِليه الأَب (ب)، وهي تتألّف، على نحوٍ خاصّ، من شهاداتٍ صادرة عن الأطبّاء المعالجين، وكان معظمها قليل الشأن، لا يعني له أمراً محدّداً، ولا يجديه نفعاً.

فقد كان لويس ليراك قد قدم ليفحص مرضى، ويتحقّق من حدوث تبدّلات فعليّة، على نحو ما كانت تؤكّد الروايات الواردة من لورد، وكان قد حدّث نفسه قائلاً:

" لقد قوبل ما يحدث في لورد برفضٍ مبدئيّ، على غير دراسة، فلمَ لا نحاول استجلاء الأمر ؟ فإِن لم يكن، ثمّة، سوى حوادث شفاء نابعة من الوهم، فهدر الوقت لن يكون جسيم الشأن، أمّا إِذا تبيّن، عَرَضاً، وجود تأثير فعليّ، مهما كان سببه، فسيكون هناك حدث، إِذا ما روقب على نحوٍ علميّ سليم، قد يحمل في طيّاته شأناً جسيماً.

نحن نكاد نجهل كلّ شيء، في المجال البيولوجيّ، عن الأحداث المحتملة، ولا يسوغ لنا أن ننكر، باسم شرائع لا نعرف منها سوى النزر اليسير.

عندما يشار إِلى أحداثٍ غريبةٍ، كتلك التي تعزوها صحف تقويّة إِلى لورد، فمن اليسير دراستها في غير تحيّز، مثلما يفحص مريض في مستشفى، أو على نحو ما تجرى تجربة في مختبر.

فإذا ما اكتُشفت حالات خداع أو تضليل، حقّ التنويه بها، أمّا إذا تحقّق المستحيل وتبيّن صدق الأحداث، فهناك فرصةٌ فريدة للوقوف على أمر بالغ الخطورة، قد يُشرع السبيل نحو أمورٍ على جانبٍ كبير من الجدّ ".

و بالتالي، فعندما توفّرت له سانحة للذهاب إلى لورد في حجيج من المرضى، اهتبلها لويس ليراك بحماس. لو أنّه كان على علمٍ بما سيلاقيه من مشقّة كبرى في مراقبة المرضى، وباستحالة الاطّلاع على أوضاعهم قبل الرحلة، لكان أحجم عن المهمّة، بلا ريب، ولكن، الآن، فات وقت التردّد .

و استيقظ النائب الاسقفيّ العامّ، حين توقّف القطار في محطّة صغيرة، وكان الحرّ يتفاقم والذباب يطنّ، وأعلن النائب الأُسقفيّ: " سنتلو المسبحة الأولى وستشرّفنا مدام د ي ر بتلاوتها ". واعترضت السيّدة د ي ر وقد أخجلها الشرف الذي أوليَتْه، ولكن، نزولاً عند الإلحاح الذي تكرّم بمقابلتها به النائب الاسقفيّ، شرعت بالصلاة.

كان الأَب ب، الذي يبدو منهكاً، يمرّ بأصابعه الضخمة، ذات البراجم المعقّدة، على حبّات مسبحته الكبيرة المصنوعة من خشب البقس، أمّا الدكتور ليراك فكشف رأسه، وراح يراقب رفاقه.

كان الردّ على طلبات السيّدة دي ر يتوالى رتيب الطنين، وكان صوتها، في نبراته البطيئة، يُحدث شيئاً من الضجيج. ولدى إمعان النظر إليها كان يمكن مشاهدة تورّم في الغدّة الدرقيّة، يتجاوز قبّة ثوبها. هي، أيضاً، كانت مريضة، وكانت تنشد ،في لورد، زوال هذا الورم.

و غمس النائب الأسقفيّ يديه بين أردان أكمامه. كان ذا محيّا نحيف شاحب، يحفره ألف غضن، وفمٍ جميل متحرّك الشفتين، وحاجبين سوداوين بارزين. كان جفناه مطبقين ولكنّهما ينفرجان، بين حينٍ وحين، عن بريق عينين سوداوين تشعّان ذكاءً، ودائمتي الترصّد.

و أخيراً قالت السيّدة دي ر: " المجد للآب والابن والروح القدس آمين ".

و استعلم النائب الأُسقفيّ العامّ عن مستوى المقصف، والمكان الذي يصلح للعشاء، وحال مختلف فنادق لورد، وكأنّه كان يؤدّي سُخرةً، ويحاول أن يجعلها على أقلّ قدرٍ من الإزعاج.

أمّا الأب ب فكان قلقاً على مرضاه وقد قال:

" هذه هي الرحلة الخامسة والعشرون التي أقودها إلى لورد، ولقد تكرّمت علينا دائماً العذراء القدّيسة بنِعَمٍ سنيّة، إذ يعترف خمسون أو ستّون مريضاً من أصل مئة، لدى عودتهم، بأنّ وضعهم قد آل إلى أفضل، أو أنّهم قد شفوا ".

و اعترض ليراك قائلاً:

" وماذا عن الذين كانوا يأملون في الشفاء، وتجشَّموا مشاقّ الرحلة الطويلة ؟ لا بدّ أنّهم يموتون يأساً ونَصَباً، عندما تخيب جميع أمانيهم. "

– " ولكنّك لا تقيم للإيمان حساباً، أيّها الطبيب العزيز، فالذين لا يظفرون بالشفاء، يرجعون، مع ذلك، معزّين، وحتّى عندما يموتون فهم يموتون سعداء ".

لقد كانا، كلاهما، يقفان في رواق القطار المنطلق بسرعة قصوى، في حين كانت الشمس، من خلال الغيوم، ترسل أشعّتها البيضاء، ثقيلة، وكان النهر ،الذي صخّمته الأمطار الربيعيّة، ينساب سريعاً، بين الضفاف الواطئة، المزدانة بالحور والصفصاف، وكانت أشجار الحور تنحني بمرونة تحت ريح الجنوب الشديدة، فيما تنقلب أوراق الصفصاف مُظهرةً وجهها السفليّ الفضيّ.

من خلال الريف، وأفقه الفسيح الغارق في الضباب، كانت تُشاهَد، حوالي المزارع، جدران السرو، تحاكي لطخة قاسية وسط ألوان الربيع الزاهية، أمّا البؤساء الذين كان القطار يقلّهم عبر الريف، فكانوا على غير شعور، يبذلون الجهد الأخير نحو الحياة.

في الساعة السادسة، خرج ليراك إلى رواق القطار فارّاً من جوّ المقصورة الخانق، حيث كانت تتصاعد، بلا انقطاع، صلوات المسبحة الرتيبة. وكان في العربة الأخيرة، أربعة إكليريكيّين وفتاة بيضاء الخدَّيْن، يضحكون ويُنشدون التراتيل.

و كانت أُسرةٌ بورجوازيَّة تحتلّ مقصورةً في الدرجة الأُولى ازدحمت بحقائبها الجلديّة الصفراء. وفي المقصورة المجاورة كانت راهبة تجلس وحيدة، وكأنّها منجذبة الروح، في حين كانت تتكدّس أُسرةٌ كاملة، مع طفل أعمى، وإكليركيّ ضخم هو الأب ب. الذي يمكن اعتباره نائب مدير الرحلة. لقد كان فيما مضى مرشداً روحيّاً للجيش، وكان، هو على الأقلّ، يخامره شكّ بأنّ المرضى المساكين يقاسون الآلام في ذلك القطار التعيس، ممّا كان يثير قلقه.

و قد سأل ليراك:

– " لديّ مريضان يعانيان من الألم قدراً كبيراً. ألا يمكنك نجدتهما بحقنة مورفين ؟ "

وبما أنّ المقصورات التي تكدّس فيها المرضى كانت تفتقر إلى الممرّات فقد نزلا في المحطّة التالية، ليصعدا إلى مقصورة بالدرجة الثالثة.

في تلك المقصورة كانت فتاة تعاني مرضاً خطيراً منذ ثمانية أشهر، واسمها ماري فيران. لبضعة أيّام مضت، كان طبيب مستشفى القدّيس يوسف قد رفض إجراء جراحة لها، لما كان عليه وضعها العامّ من خطورة بالغة، وكانت قد ألحّت على القدوم إلى لورد. وقال الأب ب: " لقد أوصيتُ بها توصيةً خاصّة، وسأكون لك ممتنّاً إذا ما عُنيتَ بها ". ثمّ أردف: " إنّها من الوهن بحيث أخشى كارثة ".

كان باب المقصورة مفتوحاً، وكان فراشٌ ممدوداً على المقاعد بشكل عرضيّ، حائلاً دون الولوج من أحد الجانبين، وكانت الفتاة مُسجّاة، وقد نضب من الدم وجهها، متشنّجة، بنفسجيّة الشفتين، وقالت " إِنّني أَتألّم كثيراً، ولكنّني سعيدة بمجيئي، وقد حاولت الأَخوات الراهبات منعي من ذلك ".

و ردّ علها ليراك:

– " سأعود هذه الليلة. وإِذا ما اشتدّ بك الأَلم فستستدعيني ممرّضتك، وستعطيك حقنة مورفين ".

أَمّا للأَب ب، فقال: " ليست مريضتك على أَحسن حال. ما تفعلون بالمريض الذي يلقى حتفه أَثناء الرحلة ؟ " ؛ ومن كلّ صوب كانت الممرّضات تهبطنَ من القطار إِلى الرصيف، وعبر النوافذ كانت تتراءى وجوهٌ شاحبة ضامرة، يختلط بها، هنا وهناك، قرويّون بوجوههم المشرقة كوجوه كهنة القرى. فتيات عديدات كنَّ في جيئةٍ وذهاب، في زيّ الممرّضات، فالمئزر الأَبيض، ولأَردان العريضة الناصعة زيٌّ لائق جدّاً. في كلّ عربة كانت ممرّضة مجازة، وكوكبة من الممرّضات المساعدات، وكان هناك حشدٌ من الفلاّحين والقرويّات اللائي لوَّحت الشمس وجوههنّ التي علتها الدهشة، ومن الحجّاج الذين حملوا الزجاجات الفارغة، والرزم الصغيرة، وكانت البهجة هي النغمة السائدة.

قطار الحجّ هذا كان أشبه بقطار متعة، ولكن من غير ضحك متفجّر ولا أَغانٍ فاحشة، وكان كاهنٌ ريفيٌّ، بوجهه الأَسمر المغضّن، يعدو من عربة إِلى أُخرى، فقد جاء بمئة وخمسين جبليّاً، وكان يعيش معهم في ألفة، يطعم كسرة خبز وشريحة قديد، ويشرب من فم الزجاجة.

أَمّا النائب الأَسقفيّ العامّ، فقد اجتاز الممشى إلى المقصف، في حين كان التواضع قد دفع مدير الرحلة إِلى مقصورة في الدرجة الثالثة، حيث تكدّست الصناديق والسلال والزاد المخصّص للمرضى، أَثناء الرحلة.

في حوالي الساعة العاشرة، تحت أَضواء المصباح الذي ينخله ستار أَزرق مخفّفاً وهجه، بدأ ليل النائب الأَسقفيّ العامّ، وقد تعمّم بقلنسوته المخمليّة، أَمّا السيّدة دي ر، فكانت ترقد في وقار.

في الخارج كان القمر يلمع في سماءٍ ساجية، وفي البعيد، كانت تُشاهَد الأَمواج تتألّق، وهي تنتشر في طبقات بيضاء على رمل الشاطئ، حين توقّف القطار، بغتةً، في محطّة صغيرة. لم يكن، ثمّة، أَيّ ضوء، وإِذ تناهى إِلى سمع ليراك الواقف على مدرجة القطار، ما يشبه نداءً موجّهاً له، وكان صوت امرأة يقول:

" دكتور، دكتور، تعال سريعاً، نحن لم نعد ندري ما يجب علينا فعله. "

و تبع ليراك شبح الممرّضة الأبيض طوال رتل العربات المتمادي بلا نهاية، إلى أن بلغا مقطورة مزدحمة حيث صعدا.

كانت المريضة مسجّاة في أحد أطراف المقصورة، على خشبة موضوعة عرضيّاً، يعلوها فراش رقيق، كانت امرأة قويّة البنية تتلوّى بفعل آلام مبرّحة، ممّا ألقى الرعب في قلوب ركّاب المقصورة، وقد همست بصوت يكاد ينطفئ:

– " إنّني أتألّم حتّى الموت. هكذا منذ ساعتين، بربّك أسعفني ".

و عالجها ليراك بحقنة مورفين، فزال الألم في الحال وطفقت المرأة تتكلّم قائلة:

– " لديّ علّة في القلب تسبّب لي انتفاخاً. وقد أعطيتُ منذ برهة بيضتين مسلوقتين، وأعتقد أنّني قد أُصبت، منهما، بعسر هضم ".

كان دور ليراك قد انتهى، ولكنّه اضطُرّ إلى البقاء سجيناً، حتّى المحطّة التالية، في تلك المقطورة التي كان يحتلّها أربع نساء، وفلاّح، وشابّ دهش ليراك حين تعرّفه، فإذ به أحد رفاقه القدامى في المدرسة، واسمه (آ ب).

الساعة الثالثة صباحاً، تلك الفترة من الليل التي تسبق انبلاج النهار، هي، لجميع البؤساء والمرضى، الذين يرتجفون ويتألّمون، وللذين يسهرون، فترة الخوف، والضيق، واليأس. وفي العربة التي كان ليراك قد اضطُرّ إلى البقاء فيها منذ المحطّة الأخيرة، كانت الممرّضة التي سهرت على ماري فيران طوال الليل، قد رُوّعت حين أُغمي على مريضتها، فاستدعت ليراك على عجل.

كانت ماري فيران، ملقاة على فراشها، نصف عارية، مخضرّة الوجه، إلاّ أنّها قد استعادت وعيها، وكان مصباح المقصورة يسكب ضوءاً باهتاً، وكان الحرّ خانقاً، ولكن من خلال النافذة التي خفض زجاجها، كانت تتسرّب بعض هبّات نسيم بارد، مُسهمةً في إنعاشها، فراحت تئنّ في قلق: " لن أَصل أبداً إلى لورد ".

في ذلك القطار المتمادي في الطول، كان الركّاب يُقذفون الواحد على الآخر لدى كلّ توقّف، وليس من العسير تصوّر ما كانت تسبّبه هذ الصدمات المتكرّرة من آلام للمرضى، وقد عبَّرت الممرّضة على ذلك بقولها:

– لدى كلّ توقّف، كان وجهها يتشنّج، وتوشك أن تفقد الوعي، فلا أعود أعلم ما أفعل لنجدتها.

– سنحقنها، مؤقّتاً، بزرقة مورفين .

و رفعت الممرّضة الأكمام عن ذراع شاحبة، معروقة، فيما ملأ ليراك محقنة بريفاز بمحلول المورفين، وإذ كان يفتقر إلى مصباح كحوليّ، ألهب الإبرة بشعلة عود ثقاب، ثمّ غرزها تحت الجلد الأبيض، حيث خلّف أثر الدخان الذي أحدثه الثقاب لطخة سوداء صغيرة.

– في غضون خمس دقائق، سيزول عنك الألم. بانتظار ذلك، سنفحص بطنك، وسنضع فوقه بعض اللودانم (عقار يحتوي على مزيج من الأفيون) .

و عرَّت يدا الممرضة الرشيقتان بطن ماري فيران المنتفخ، وقد التمع فيه الجلد المشدود حتّى الضلوع التي برزت تحته ؛ وكان جوفها يتمدّد بفعل موادّ صلبة، في حين كان جيبٌ سائل يحتلّ منطقة السرّة، وتلك هي أعراضٌ نموذجيّة تؤكّد التهاب الصفاق السلّيّ.

و لمس ليراك بطن المريضة بظهر سبّابته ووسطاه، فتبيّن له أنّ الحرارة كانت أعلى من الحدّ الطبيعيّ، وكانت الساقان منتفختين، والقلب يخفق بسرعة، كما أنّ التنفّس، أيضاً، كان متسرّعاً بعض الشيء، وسألها:

– ألا يزال لك والدان على قيد الحياة ؟ ..

– لا، يا سيّدي، لقد قضيا نحبهما منذ بضع سنوات.

– بأيّ نوع من المرض ؟ ..

– لقد كان والدي يبصق دماً، أمّا أُمّي فقد ماتت من جرّاء التهاب رئويّ، بعد أن ظلّت مريضة فترة طويلة.

وكانت الراهبة التي قادتها إلى القــطار قد روت لليراك أنّ ماري قضت كلّ عمرها مريضة، ففي السابعة عشرة كانت تسعل وتبصق دماً، وفي الثامنة عشرة أُصيبت بذات الجنب، وقد بزل من جنبها الأيسر ليتران ونصف من السائل، وقد ظلّت، بعد ذلك، مريضة، ولو أنّ حدّة مرضها قد خفّت، إلاّ أنّها، حين أُدخلت مستشفى (ن)، أخذ بطنها في الانتفاخ، واعترتها حرارة، وشخّص الطبيب لديها التهاب صفاق سلّيّاً. وبعد بضعة أشهر، أرسلها إلى مستشفى القدّيس يوسف كي تُجرى لها عمليّة جراحيّة، بيد أنّ رئيس الجرّاحين، حيال خطورة وضعها، آثر عدم التدخّل، وأُبلغ ذووها أنّ لا أمل في شفائها، وأُعيدت إلى مستشفى (ن). إلاّ أنّها أبدت من الإصرار على المجيء إلى لورد، قدراً كبيراً، بحيث تمّ لها، أخيراً، ما رغبت فيه.

و كانت هذه المعلومات تتوافق توافقاً تامّاً، مع ما كان يمكن التحقّق منه بالملاحظة، ولدى معاينة بطن المريضة، خطر لليراك أنّه بالإمكان إجراء شقّ فيه، طوله بضعة سنتيمرات، فوق السرّة، بعد التخدير بالكوكائين، وقال لنفسه: إن هي عادت حيَّة من لورد، سيكون بوسعي أن أقترح عليها ذلك. وفي تلك الأثناء كان المورفين يمارس أثره، وقالت المريضة:

– إنّني أشعر بتحسُّن.

و إذ كان ليراك سجيناً في العربة، جلس على المقعد الخشبيّ منتظراً المحطّة التالية، ليستطيع العودة إلى مكانه.

كانت الشمس موشكة على الإشراق، والسماء ذات الصفاء الرائع، ما زالت متّشحة بألوان الليل الزرقاء الباردة، ومن الحقول كانت تتصاعد رائحة نديّة، فيما ضباب رقيق يُغرق حنايا التلال المبهمة التي كان يسدّها الأفق.

غير أَنّ نسيم الصبح الرقيق لم يكن يجد طريقه إِلى تلك العلبة الموبوءة حيث المرضى كانوا يلقون في التنفّس عناءً.

و كانت ماري فيران، هي أَيضاً، قد نهضت برأسها لتتـــنشّق ذلك الهواء الموبوء، وكان جفناها البنفسجيّان قد هبطا، بحيث بدت نائمة بتأثير المورفين. لقد كانت ماري فيران قد سكنت، فراحت الممرّضة تنظر إِليها في اطمئنان. تلك الممرّضة الشابّة، كانت تُعنى بالمرضى بدافع الإِيمان، بلا ريب، ومن المؤكّد أَنّها قد خبرت من الانفعالات أَلواناً. ولم يكن ليراك قد رأى منها سوى يديها الليِّنتَيْن، بأناملهما الرشيقة، في حزم، واللتين تشدّهما، عند المعصميْن، أَكمام بيضاء. كانت ترتدي زيّاً على غرار جميع الممرّضات، وكان وجهها يلفت النظر بعينين متألّقتين، قابعتين تحت حاجبين داكنين، وكأنّ شذرات ذهبيّة تتراقص فيها أحياناً، وقد استجرّها ليراك إِلى حديث قصير، إِذ سألها عن هدف مجيئها إِلى لورد.

و كانت أَشعّة الشمس تنزلق فوق التلال الخضراء، بتؤدة، وتنطرح على باب العربة، بل على وجه المريضة.

و كانت العصافير تزقزق، فيما تتصاعد من الأَرض رائحة عذبة تنمّ عن العشب المقصوص، وكان صفاء الجوّ يُبرز، بدقّة، جميع تفاصيل المنظر، وإِزاء سناء جمال النهار الطالع، كانت مشاهد البؤس التي انطوى عليها قطار المرضى الجاري وسط ريفٍ زاهٍ، تتبدّى على نحوٍ أَشدّ وضوحاً. أولَم يكن وجه تلك الفتاة المسكينة، التي، وهي في سنٍّ كلُّ شيءٍ فيها يرقص طرباً، لم تعرف، قطّ، الحياة، ولن تعرفها أَبداً، أَكثر استدراراً للرثاء، حيال سكون الأَشياء الذي لا يشوبه تعكير ؟.

و مع ذلك، كان ليراك يرى أَنّ أَحداً من أولئك البؤساء لم يكن راضياً بالموت، بل كلٌّ منهم كان يؤنس، في أَعماقه، حاجة إِلى الحياة وتطلُّعاً إِليها، وما أَسعد الذين يؤمنون بوجود عقلٍ سامٍ يدير حركة تلك الآلة الصغيرة، ويمنع القوى العمياء من تحطيمها !

و أذنت الساعة الثانية، وأَشرف القطار على بلوغ نهاية مطافه: الأرض المقدَّسة، مدينة الخوارق، لورد، غاية تلك الرحلة الطويلة الشاقّة، ستتجلّى، قريباً، في مجد ساعات العصر المشعّ.

و أخذت تظهر في السماء بعض الغيوم البيضاء، فوق أَشكال سفوح البيرينيه التي بدأت تتراءى. كان الهواء ساكناً وحارّاً، وفي نهاية رتل أشجار الصفصاف المتألّق كان يُشاهد مجرى سيل لورد، وفي البعيد، ذؤابة قبّة جرس، نحيلة، رشيقة، صافية، تنتصب وسط الغمام

الرقيق. وتوقّف القطار قبل أن يدخل إلى المحطّة، فظهرت عند جميع النوافذ، وجوهٌ شاحبة مذهولة، جذلى، تحيِّي الأَرض المختارة، حيث ستتلاشى جميع أَسقامهم، تلاشي الدخان الذي تذهب به الريح.

نفحة أَمل لا حدود لها، كانت تنبثق من كلّ تلك الرغبات، من كلّ تلك المعاناة، من كلّ ذلك الحبّ.

كان النائب الأسقفيّ العامّ قد نهض، فيما السيّدة دي ر، كانت تغرس وسادتها في إِحدى حقائب الكتّان الموشّاة، وكان الزوجان البورجوازيّان يزدحمان بحقائبهما الجلديّة الصفراء، في رواق العربة، والصمت يسود، والجميع يتطلّعون في ا تّجاه الكاتدرائيّة، حيثُ كلّ واحدٍ كان يتوقّع لنفسه الخوارق.

و من أَحد أَطراف القطار تعالى صوتٌ منشداً الترتيلة المقدّسة:

" سلام يا نجمة البحر

يام أمّ اللّه ومرضعته ".

و انتشرت الصلاة من عربة إِلى عربة، وانفجرت من جميع الصدور. ورغم اختلاطها، جميعاً، كان يمكن تمييز أَصوات الأَولاد الحادّة، وأَصوات الكهنة الثخينة، المبحوحة، وأَصوات النساء.

لم تكن نظير الترتيل المبتذل الذي تنشده في الكنائس جوقات الفتيات، بل كانت صلاة الفقير الذي يلهث جوعاً.

و فجأة شرع في الترتيل جميع من كانوا في المقصورة مع ليراك. كان النائب الأُسقفيّ العامّ، بصوته الجميل، يدعم النغمات المبحوحة التي يصعّدها صوت الكاهن المصدور الأَجشّ، ونأمة السيّدة دي ر المتعبة، وفي مقصورته، كان الأَب ب يُنشد " يا نجمة البحر "، فيما، من الطرف الآخر، كان صوت الفتاة ذات العينين الحمراوين، بجرسه الصافي، يُنشد مقطعه الخاصّ، محاكياً الإِيقاع الرنّان الذي يمتاز به الإِكليريكيّون.

و كان التأَثُّر يتفاقم، وتحرّك القطار، وسط أَناشيد الحميّة والأَمل، وولج بتؤدة، إِلى محطّة لورد.

كان الوقت يشارف الظهيرة، ولدى خروجه من قاعة طعام الفندق، اجتاز لويس ليراك البهو الكبير المترع نداوة وظلاًّ. توقّف، لحظةً، عند عتبة الباب التي غمرتها الشمس، وقد بهره النور الساطع، وبعد أَن أَشعل سيجارة، انحدر إِلى الرصيف.

في غمرة منتصف النهار وأُبّهته، كانت السماء، بزرقتها المتأَجّجة، تبدو وكأَنّها تختلج طرباً فوق الشارع المقفر، وكانت البيوت تلقي على قارعة الطريق ظلَّها القصير القاسي، ومن

الأَرض البيضاء، كان يتصاعد ضوء كثيف، باهر، يجرح العيون، ويكاد يقسرها على الإِغماض.

و مرّت نسمة فاترة، طاردةً أَمامها زوبعة صغيرة من الغبار، وكان الذباب يطنّ. وصعد لويس ليراك بتؤدة، في الطريق الذي غمرته الشمس، متّجهاً صوب بناءٍ على قيد بضع مئات من الأَمتار، هو مستشفى سيّدة الآلام السبعة، حيث تكدَّس المرضى، الذين جاءت بهم إِلى محطّة لورد، منذ يومين، قطارات الحجّ.

كان ليراك دكتوراً في الطبّ، وباحثاً في كلّيّة ليون،و كان معنيّاً، على نحوٍ خاصّ، بعلم التشريح، والعلوم التجريبيّة، كما كان يهتمّ ببعض القضايا الواقعة على حدود علم الأَمراض (الباثولوجيا). وكانت روايات لورد، منذ فترة طويلة، قد استأثرت بانتباهه، فتَحْتَ الأَساطير المغالية في الغرابة، التي كانت تنشرها بعض الصحف الكاثوليكيّة، والتي انطوى عليها مجلّدا الدكتور " بواساري "، كانت، بلا شكّ، تختبئ أَحداثٌ جديرة بدراسة مستطلعة.

أوَ لم يكن إِميل زولا، وهو شاهدٌ لا تناله ريبة، قد طالع أُموراً عجيبة ؟ وبالتالي فإِنّ هذا القطار الذي ازدراه معظم الأَطبّاء، والذي لم يتعرّض، بعدُ، لأَيّة مراقبة منهجيّة، كان يشدّه ويغريه.

لبضعة أَيّام خلت، كان الطبيب المكلّف بخدمة الحجّ الطبّــيّة، وهو على معرفة غير وثيقة به، قد اقترح عليه أَن يضطلع عنه بالمهمّة. ومع نفوره من السفر وسط الحجّاج، كان قد قدم مصطحباً آلة التصوير، وعلبة الأَصباغ، وسجلاًّ للملاحظات. لم تكن ثمّة وسيلة أُخرى لجمع الوثائق، ورغم تيهه بين أَكثر من ثلاث مئة مريض، كان قد سارع إِلى تفقّد أوضاع القسم الأَكبر منهم، ليستطيع مراقبة أَيّ تغيير قد يطرأ على أَحوالهم.

لسوء الطالع، لم يتح له ضيق الوقت، وشتّى الصعاب، إِجراء سوى عدد ضئيل من الملاحظات، وكان عازماً، آنذاك، على إِتمام فحص بعض الحالات، قبل استحمام المرضى في مياه لورد، بعد الظهر. وما لبث أن وجد نفسه أَمام الحاجز المشبّك الكبير الذي يفصل بين الشارع ومستشفى سيّدة الآلام السبعة. وراء ذلك الحاجز، كانت تنبسط باحةٌ فسيحة حوَّلتها الشمسُ صحراء تضجّ بالحرّ، وفي صدر المكان، إِزاء المستشفى والمصلّى، كان يُشاهد مُنبَسطٌ من العشب الأَخضر، وأوراق شجر البقس الداكنة المشذّبة بعناية، والتي تشكّل السياج.

و كان خطّان حديديّان مزدوجان يلجان حتّى الباحة، ممّا يسهّل الوصول بالمرضى من المحطّة إِلى المستشفى. وفي عربة طويلة ذات ستائر بيضاء وحمراء، مهملة على الخطّ الحديديّ، كان أَحد مضيفي سيّدة لورد، غافياً، وحمّالاته الجلديّة الصفراء على كتفيه، فيما غليونه المصنوع من خشب الخلنج، قد استقرّ بين أَسنانه، وانسحبت طاقيّته على وجهه، حتّى شاربيه اللذين يحاكيان شوارب فوارس المرتزقة.

إنّ ضيافة لورد يضطلع بها رجال من كلّ أقطار العالم، يَقدِمون كلّ سنة لقضاء بضعة أسابيع هناك، فيعنون بنقل المرضى، وباستحمام الرجال منهم فقط، ويقومون بمهمّة الشرطة في المغارة، وفي برك الاستحمام، وفي المستشفى، وتغدو مهامّهم مرهقة، إبّان مواسم الحجّ الكبرى، إلاّ أنّهم يؤدّونها، في أكبر قدرٍ من التفاني. وكان ليراك قد التقى بينهم أناساً طيّبين، آزره لطف معشرهم في أداء مهمّته.

أمام الباب المشرع، كان س. م. يتكلّم بلهجة القرويّين المتباطئة، وسط مجموعة من حاملي المحفّات. إنّه رئيس المضيفين، رجل ذو شأن، تنبسط لحيته البيضاء مثل مروحة فوق صدره المغطّى بالأوسمة الزرقاء، والصلبان الفضيّة. وكان زوجٌ من الحمّالات الجلديّة ينهض برهاناً على تفانيه، وكذلك الوسام الحبريّ الضخم، الذي يوشّي عروته باللون الأحمر. وكان وجهه القاني العريض يقطر عرقاً، تحت طاقيّة جميلة من المخمل الأسود، وكان يصدر أوامره في إثارة واهتمام ودهشة، مثل جنرال يُعدّ هجوم جيش.

حيّاه ليراك، واتّجه نحو أحد حاملي المحفّات، أ. ب رفيقه القديم في المعهد، الذي كان يخاطبه فرِحاً.

أ. ب، هو أيضاً، كان قد تقــلّد حمّالات جلديّة، ومنذ يومين، كان يقوم بنقل المرضى، من عربات القطار، فيهبط بهم إلى رصيف المحطّة، ثمّ يمضي بهم إلى المستشفى، فيجرّدهم من ثيابهم، ويغطّسهم في برك الاستحمام، غير متقزّز من الخرق البشريّة الهرمة التي نخرها الدود، ولا من القروح الناضجة، ولا من الأورام السرطانيّة المدمّاة، ولا من الروائح الكريهة، المنبعثة من أجسام متفسّخة. إنّه لم يكن، في باريس، ليلمس، ولو بطرف عصاه، أقلّ هؤلاء البؤساء بعثاً على النفور.

و كان ليراك يعجب لتأثير المحيط.

– " في أيّة ساعة يتمّ نقل المرضى إلى برك الاستحمام " ؟.

– " نشرع في حوالي الواحدة والنصف "

– " الوقت ما زال ظهراً، ولدينا من الوقت متّسع. تعالَ نقُمْ بنزهة إلى أن يحين الأوان ".

و تقدّما معاً نحو المدينة العالية، عبر الطريق الخالي المضيء، حيث كانت حوانيت الموادّ التقويّة تبرز واجهاتها، تحت خيام زاهية الألوان. وطالعهما، بين بيتين أبيضين، زقاق حافل بظلٍّ منعش زرقاويّ اللون، حيث كان يقبع مقهى داكن في إزاء جدارٍ رماديٍّ سامق.

و أغراهما هدوء المكان، فاستقرّاعلى كراسٍ حديديّة، وأمرا بقهوة، ثمّ استحضر أ.ب. حبراً وطفق يكتب رسالة لزوجته التي بقيت وحيدة في باريس.

و استند ليراك على الحائط، وراح يتأمّل دخّان سيجارته المتصاعد على نحوٍ مستقيم في الهواء الساكن، والمارّة الذين، عبر النور الأَبيض، كانوا يظهرون في طرف الزقاق، ووجه أ. ب. الملوّن، تحت قبّعته، وكان، في أَعماق فكره، يعجب كيف أَنّ رفيقه هذا، قد عزم على القيام بهذه الرحلة، في عربة قطار من الدرجة الثالثة، بصحبة مرضى منفّرين، وكيف استطاع أَن يروّض نفسه على هذا التفاني المتّصل في كلّ لحظة. صحيح أَنّ زوجته كانت تنتظر ولادة ابن لها، وهي التي كانت قد حملت أ. ب. على الذهاب إِلى لورد، لاستجلاب بركة العذراء على رأس ابنها المنتظر، ولا بدّ أن يكون هذا هو سبب قبوله تلك السخرة الشاقّة، إِذ لا ريب أَنّ هذا الفتى الأَنيق الذي لا يملك سلوك خادم كنيسة ولا أَذواقه، كان يلقى مشقّةً في جرّ عربة مريض صغيرة، على قارعة الطريق، مرتّلاً الصلوات بصوتٍ عالٍ، ولكنّه، في الواقع، كان يؤمن في بساطة، ومن غير نقاش، إِيمان طفل.

و كان يطوف، في خاطر ليراك، التطوّر المناقض الذي طرأ على حياته هو. لقد نشآ معاً، في معهد واحد، وتلقّيا تربيةً دينيّةً مماثلة، غير أَنّ الحياة، بقبضتها القاسية، قد دفعت بهما في طريقَيْن متباينين.

فليراك الذي استحوذت عليه دروسه العلميّة، وأغرى فكرَه نهجُ النقد الأَلماني، كان قد انتهى، شيئاً فشيئاً، إِلى قناعة بأنّ ما من يقين خارج المنهج الموضوعيّ، وانهارت آراؤه الدينيّة، بتأثير التحليل، مخلّفة لديه ذكرى عذبة عن حلمٍ رقيق رائع. ولجأ، حينذاك، إِلى ريبيّة منفتحة متسامحة، فقد كان يمقت التعصّب، ويؤمن بطيب جميع العقائد المخلصة.

كان البحث عن الجوهر والأَسباب يبدو له نافلاً، فيما وحدها دراسة الأَحداث كانت تعنيه، وكانت العقلانيّة تفعم فكره بالرضى، ولكن، في أَعماق قلبه، كان يختبئ ألمٌ كمين، وشعورٌ بالاختناق في حيِّزٍ ضنك، وحاجة إِلى اليقين لا تعثر على ما يشبعها.

كم من ساعات قلق وهاجس، كان قد أمضى، في دروس الفلسفة، وتفسير الكتاب المقدّس، ثمّ هدأ كلُّ شيء.

و لكن، الآن، في أَعماق فكره الكمينة، كان لا يزال يراوده أملٌ مبهم، ربَّما لا شعوريّ، في القبض على أحداث توفّر اليقين، والراحة، والحبّ.

كان، في آنٍ معاً، يزدري ويحبّ التعصّب لدى الحجّاج والكهنة، ذوي العقول المغلقة، الغافية في أحضان إِيمان مغتبط.

و كان يخاطب نفسه، وهو يضع السكّر في القهوة التي جاؤوه بها: " في سبيل النزر اليسير من المعرفة، قد حطَّمت أجمل الأَشياء فيّ. إِنّ الحقيقة، أَبداً، سيّئة، حزينة، وإِنّني لتعيس ! " ثمّ سأل أ. ب. الذي كان يلصق مغلَّفاً أَصفر اللون: " هل لديك علم بمرضى قد شفوا هذا الصباح، في برك الاستحمام ؟ "

– لا، لا أحد، إلاّ أنّني قد شهدت معجزة أمام المغارة، إذ وصلت إلى هناك راهبة عجوز، تسير بمشقّة، مستندة إلى عكّاز، وقد استقت بعض ماء في كوب، وبعد أن رسمت إشارة صليب عريضة، شربت، وفي الحال، أشرق وجهها، فرمت عكّازها أرضاً، وعدت إلى المغارة برشاقة، وارتمت جاثية أمام العذارء القدّيسة. لقد شفيت ... وقد رُوي لي أنّها، في أعقاب ملخ مفصليّ، انتابها منذ ستّة أشهر، قد تعرّضت لالتهاب عضال في القدم.

و بادر ليراك إلى تقليب صفحات سجلّ ملاحظاته، ثمّ سأل :

– ألم تكن هذه الراهبة مضيفة في " أوتيل ديو " بليون، مسنّة، قصيرة، نحيلة، وتدعى الأخت د ؟

– نعم، إنّها لهي، أجاب آ.

– إذن، شفاؤها حالة إيحاء ذاتيّ جديرة بالاهتمام. لقد كنت قد فحصت هذه الراهبة، وهي بالفعل كانت قد أُصيبت بملخ مفصليّ، منذ بضعة أشهر، ولكنّها، لدى وصولها إلى لورد، كانت قد شفيت، وعادت قدمها سليمة. غير أنّ هذه الراهبة المسكينة قد تخيّلت، شيئاً فشيئاً، أنّها لن تقوى، يوماً، على السير من جديد، وقد اعتراها وهن عصبيّ، بحيث كانت تدَّعي معاناة آلام مبرّحة في قدمها، ولم تعد تفارق عكّازيها، وبدت لها لورد بمثابة الأمل الأخير، والشفاء المضمون، وقد جاءت وشفيت، والأمر طبيعيّ.

– ولكن كيف تفسّر جدوى لورد، في هذه الحال، حيث أخفقت جميع أنواع العلاج الأُخرى ؟.

–لأنّ للحجّ قوّة إقناع لا تُصدَّق، تفوق، إلى حدٍّ بعيد، قدرات أبرع الأطبّاء، فمن الجموع التي تصلّي ينبعث تأثيرٌ مبهَم، يمارس على الجهاز العصبيّ أثراً منقطع النظير، إلاّ أنه يُخفِق، حين تكون الإصابة عضويَّة.

– لقد وقفت، هذا الصباح، على مشهد محاولة شفاء مرضيّ من هذا النوع باءت بالفشل، ففي مكتب التحقيقات الطبّيّة، حيث كنت أحادث الدكتور بواساري، دخل رجل، له مظهر طبيب، ممسكاً بيد طفل أزرق جميل، في حوالي العاشرة من عمره. وبالفعل كان الرجل هو الدكتور (اكس) وقد روى لنا أنّه قدم إلى لورد بصفة حاجّ، وأنّه سيقفل راجعاً في المساء. وعرتنا الدهشة إزاء سحنته الضاجّة باليأس. حينئذٍ طلب إلى ابنه أن يستلقي، ورفع عن رجليه البنطال، فرأينا، فوق الركبة، الجلد الأبيض، وقد ازرقّ بفعل شبكة من العروق. وحين وضعتُ، ثمّة، يدي، أحسست، على العظم، ورماً في قسوة الحديد. ولم أطلب أيّ تفسير آخر. لقد كان سرطاناً عظميّاً ظاهره بريء، ولكنّه يقود إلى الموت المحتّم، ومن شأنه أن يفضي بالطفل إلى حتفه في غضون سنة، حتّى ولو أُجريت له مداخلة جراحيّة.

– " إنّه ابني الوحيد، تمتم الوالد، وهذا الورم يتطوّر بسرعة صاعقة. لقد كنت متشكّكاً، ولكنّ العذاب قد دفعني إلى الجنون، وقد آمنت، وأصبحت مثابراً على الواجبات الدينيّة، لأنّني عاجز من غير ابني. وقد هرعت إلى لورد، وصلّيت، وبكيت، منذ ثلاثة أيّام، ولكنّ العذارء ظلّت لا تبدي أيّ تأثّر، وها إنّي أعود قانطاً، كي أُجري لابني عمليّة بتر لساقه، وأراه يموت عمّا قريب ".

و خرج وهو يحاول خنق عبراته، مع ابنه الصغير الذي كان يجهل مرضه.

و أضاف ليراك: إنّ قوى لورد تتحطّم أمام القوى العضويّة.

إلاّ أنّ آ. اعترض قائلاً:

– أؤكّد لك، مع ذلك، وجود حوادث شفاء أمراض على مثل هذا الجانب من الخطورة. إنّ هنري لاسّير يروي قصّة عامل منجم من ل ... مصاب، منذ ثمانية عشر سنة، بدوالٍ وقروح في ساقيه، وقد تمّ شفاؤه منها، خلال ليلة واحدة، تحت تأثير كمّادات مشبعة بماء لورد، كما أنّ ساق ج. د. كانت تحمل جرحاً طوله ثلاثون سنتمتراً، وقد قدمت من بلجيكا إلى لورد، وغطست في البركة، وعندما خرجت منها، كان الجرح قد زال، وحلّ مكانه ندب زهريّ اللون، وكذلك شأن بيير دي رودير، وكريفوت التي يروي قصّتها زولا، وآخرين كُثُر. كلّ أولئك لم يشفوا من إصابات عصبيّة.

فبيير دي رودير، على سبيل المثال، كان مصاباً بكسر في الساق غير ملتحم منذ ثماني سنوات، وقد شفي في غضون خمس دقائق فقط".

– " لقد اطّلعتُ على هذه الحوادث، وتأمّلت في كتب هنري لاسّير، وديداري، وبواساري، وزولا، ورغم ذلك، أنا لا أومن. إنّ ديداري وزولا، وكذلك لا سّير وبوساري، لم يقوموا بعمل علميّ، وإنّما مؤلّفاتهم كتب تعميم، أو هي كتب حجّ، أو آثار فنّيّة ممتعة، جميلة الأُسلوب، ولكنّها تفتقر إلى قيمة حقّة .

من الواضح أنّ شفاء بيير دي رودير، لا يمكن تصديقه، بل هو حديث هذيان يتعارض وجميع قوانين علم الأحياء، فهذا الرجل، في أعقاب سقوطه من شجرة، أُصيب بكسر غير ملتئم في الظنبوب (عظم الساق الأكبر) وعند مستوى الكسر حدث قرح متقيّح، كانت تشاهد من خلاله أطراف العظام، وكانت ساقه من القابليّة على التحرّك بحيث تستطيع قدمه أن ترسم نصف دائرة، ويصبح عقبه موجّهاً إلى الأمام.

هذا الإنسان، وفقاً لرواية بواساري، كان لديه، في محلّة (اكس)، نموذج مصغّر عن مغارة لورد، وفيماكان وحيداً مع زوجته، وبعد دعاء لعذارء لورد، انتصب ومشى، وقد برئ تماماً.

قد تكون هذ هي الاعجوبة المثاليّة، التي على المؤمنين أن ينحنوا أمامها، انحناءهم أَمام توقيع السماء، لو أنّها كانت حقيقــيّة صادقة.

و لا بدّ أن نظلّ مرتابين حيال أحداثٍ مماثلة، خشية أن نكون قد ضللنا، أو أخطأنا الحكم.

و لا مندوحة من أن يكون المريض قد خضع لفحص طبيب كفء، مباشرةً قبل شفائه... فمريضٌ على غرار الراهبة التي شاهدتها هذا الصباح، وقد شفيت تماماً، يمكن ألاّ تكون مصابة إلاّ بأَعراض طفيفة، تتلاشى بتأثير الإيحاء الذاتيّ.

فلدى أَفراد كُثُر، ولدى معظم النساء، يزيد الجهاز العصبيّ من خطورة أَعراض إصابة عضويّة، بحيث تغدو آفةٌ طفيفة في العين تشنُّجاً هيستيريّاً في الأَجفان، يُحدث فيها تصلُّباً لا شفاء منه.

و هكذا عندما يبلغ الحجّ أوج الانفعال، يتلاشى الجزء العصبيّ من الإصابة، ويطرأ على المريض تحسّن بيِّن، وفي الحال تعلن الأُعجوبة. وقد روى لي صديق الحادثة التالية:

أَثناء حجّ كبير، وساعة الطواف، نهض مريض على جانب كبير من الهزال، وقد دمّر جسده مرض عضال مزمن، وصاح معلناً عن شفائه، وتقدّم، وحيداً، بوجهه الذي يحاكي وجوه الأَموات، وهتف الجمع المحتشد للأُعجوبة، ووسط غليان الحماس، انتصب المريض واقفاً، لحظة، ثم هوى ميتاً.

على هذا النحو، ترى ما يقوى على فعله الإيحاء الكثيف، والانفعال العصبيّ المفرط".

– ولكنّني أؤكّد لك أَنّ أمراضاً حقيقيّة تُشفى، وأوراماً تزول، ولكنّك لا تؤمن، لأَنّك تحكم مسبقاً باستحالة حدوث الخوارق، مع أَنّ بوسع اللّه تعديل نواميس الطبيعة، وهو الذي وضعها.

– إن كان اللّه موجوداً فالأُعجوبة ممكنة، ولكن هل للّه وجود موضوعيّ ؟ وهل للعذارء وجود إلاّ في أدمغتنا ؟ وأنّى لي معرفة ذلك ؟ إنّه ليصعب عليّ، على السواء، أن أحكم مسبقاً بإمكانيّة أو باستحالة العجائب، وما من فيلسوفٍ موضوعيّ سيصدر، يوماً، حكماً بهذه العبارات القاطعة، بل سيقتصر على القول: " لم يتمّ، حتّى اليوم، التحقّق، علميّاً من العجائب " .

" إنّني أَعلم أَنّ المدرسة العلميّة التي يتزعّمها م. هيرنانس، والتي ينتسب إليها، للأَسف، عددٌ جمٌّ من زملائي، ستجيبك: العجائب مخالفة للمنطق، وبالتالي لا وجود لها.

من المؤكّد أَنّ العجائب مخالفة للمنطق، ولكن، إذا تمّ التحقُّق منها، في ظروف على جانبٍ من الواقعيّة كافٍ للتيقّن من عدم ارتكاب خطأ، إذن بات لا بدّ من الاعتراف بها، إذ لا حجّة تصمد أَمام حقيقة الواقع، فقوّة الواقع لا تقاوَم، ومن شأنها، إذا اقتضى الأَمر، دحض

جميع الأَنظمة العلميّة والفلسفيّة والدينيّة، ومتى تخلّى المرء عن مراقبة الأَحداث مراقبةً منهجيّة، هام في ضباب الريبة والضلال.

– " ولكن ما هي أَنواع الشفاء التي، إِذا ما تحقّقتَ منها، تحملك على الاعتراف بالعجائب ؟ ".

– " شفاء مرض عضويّ يحدث بغتةً: ساق مبتورة تلتئم، سرطان يتلاشى، خلع خلقيّ يبرأ فجأة.

أَعتقد أَنّ مثل هذه الأُمور، لو تحقَّقت، لبات من المتاح، حيال إِفلاس كلّ ما نعتبره اليوم قوانين ثابتة، الاعتراف بتأثير قوى خارقة للطبيعة.

إِنّ القضيّة على جانبٍ كبير من الخطورة، فنحن نكاد نجهل كلّ ما يتعلّق بالقوانين الطبيعيّة، ونخشى أَن نحاكي البشر البدائيّين، الذين لدى سماعهم قصف الرعد بين الغيوم، كانوا يتخيّلون سماع تعبير عن غضب الآلهة. وسحابة حقبة طويلة، ساد الاعتقاد باستحالة شفاء حالات الشلل الهستيريّ، والتهاب المفاصل العصبيّ، والتي يمكن أَن تزول في لحظات، وقد برهن " شاكو " أَن زوالها طبيعيّ جدّاً. من المؤكّد أَنّ تظاهرة الإِرادة المشدودة لدى عدّة آلاف الأَشخاص، تبعث ضرباً من التيّار المغنطيسيّ، من القوّة بحيثُ يمكن أَن يحسّ بها من يكون مندمجاً في جماعة، والتي ربّما تملك القدرة على لأْم الجراح.

و لكن عندما يتعلّق الأَمر بإِصابةٍ عضويّة صرف، فهذا التأثير يصبح عاجزاً بشكل واضح.

لو أَنّ حالة بيير دي رودير، كانت حقيقيّة، ولو جرى التحقُّق منها بعناية، فلست أَرى لها تفسيراً ممكناً. بيد أَنّ أُموراً كهذه لا يمكن تصديقها، إِلاّ بعد مشاهدتها.

لو أُتيح لي رؤية حدث على هذا القدر من الإِثارة والجدّة، لضحيّت، عن طيب خاطر، بكلّ نظريّات العلم وافتراضاته، ولكنّي لا أَخشى شيئاً، ولم يكن لقدومي إِلى هذا المكان من هدف، سوى أَن أكون آلة تسجيل مخلصة، وسيتمّ فحص المرضى من قبلُ، ومن بعدُ، وإِذا ما عرض أن طرأت تطوّرات على حالتهم، فسأتحقّق منها. إِنّني أدوّن ملاحظات.

إِنّني أصرف النظر عن شخصيّتي وعن آرائي، لا بل أُؤكّد لك بأَنّني لو شهدت بأمّ عيني فقط جرحاً يلتئم، التئاماً فوريّاً، لأَصبحت مؤمناً متعصّباً، أو ربّما مجنوناً. ولكن ذلك لن يحدث لي، لأَنّني لم أستطع دراسة إِلاّ حالات قليلة لمرضى مصابين بعلل عضويّة، أَربعٌ منها تثير الاهتمام. ولكنّني قد عنيت، على نحوٍ خاصّ، بعِلَلٍ عصبيّة وحالات شلل، وحالات هيستيريا ناجمة عن جراح، ومن شأن كلّ هذه الحالات أن تعطي نتائج.

هناك امرأة مصابة بعلّة قلبيّة خطرة، وحالتها العامّة خطرة، وهي توشك على الاختناق، إِذ إِنّها تعاني عسر تنفّس. لقد أعطيتها (ديجيتالين) وقمت بفحصها، وأعتقد أَنّها

تعاني خلَلاً في القلب، ترافقه مضاعفات هيستيريّة، وأنّها ستشفى. وهنالك كثيرون سواها قابلون للشفاء أو للتحسّن".

– " وما علّة ذلك الشابّ، الذي له رأس المسيح، والذي نقلته هذا الصباح إلى المغارة ؟ "

– " إصابته رهيبة: سرطان في المستقيم والشرج، ورم كبير ؛ لقد صنع له الجرّاح شرجاً اصطناعيّاً، يسيل عبره برازه منذ عدّة أشهر، ثمّ عاد السرطان، فسدّ الأمعاء، وملأ، بجسمه الصلب، البطن والحوض، ضاغطاً على الأعصاب. في غضون بضعة أسابيع، ووسط آلام لا تُحتمل، سيلقى هذا الشابّ حتفه.

هل لحظت ذلك الصبيّ، في الخامسة عشرة من العمر (ل. ب) وقد نفخ خدّه ورم في مثل ضخامة قبضتَيْ يد ؟ وقد نتأت عينه، بنفسجيّة اللون، خارج محجرها، فيما تدلّت من فمه كتلة دامية منتنة، ذلك سرطان في الفكّ الأعلى سيودي به عمّا قريب.

هناك، أيضاً فتاة تدعى ماري فيران [1]، استدعيتُ إلى جانبها، ربّما عشر مرّات، وهي أكثر منهما إشرافاً على الموت. إنّ هذه المسكينة مصابة بالتهاب صفاق سلّيّ، في مرحلته الأخيرة. لقد توفّي كلّ ذويها مسلولين، وقد منيت بقروح سلّيّة، وكهوف رئويّة، كما ابتليت، منذ أشهر، بالتهاب الصفاق الذي شخّصه أحد الأطبّاء، مثلما شخّصه (بروميو) جرّاح بوردو الشهير. إنّ حالة هذه المسكينة جديرة بالرثاء، وقد اضطررتُ إلى إعطائها حقن كافئين، وأخشى أن تقضي نحبها بين يدي الممرّضات. ولكن إذا ما شفيت هذه الفتاة، فسيكون شفاؤها خارقة حقيقيّة، وسأومن بكلّ شيء، بل سأترهّب ... "

و ردّ عليه أ. مازحاً:

– حذارِ، ففي لورد جميع الشرائع قابلة للانهيار، وإنّني لعلى يقين بأنّ هذه الفتاة قد تشفى، كما يمكن أن يشفى مرضى السرطان، وكذلك، ذلك الفتى المدهش، الذي له حدبة، وفخذاه ملتصقتان بصدره. إنّه لحالة غريبة، فهذا الكائن الضئيل، في الثامنة عشرة من عمره، لا تتعدّى قامته قامة طفل. إنّه مصاب بداء " بوت " وبتــقــفّع في الفخذين من الشدّة بحيث ارتدّا إلى بطنه.

لقد رأيت أشخاصاً مبتلين بداء " بوت " ولكن لم أرَ، قطُّ، من أفضى بهم الداء إلى مثل هذه الحال، ولا من بلغت إصابتهم هذا المدى من الحدّة. إنّ هذا المسخ المسكين ذكيّ، وهو متيقّن بأنّ العذراء القدّيسة ستشفيه. إنّ الثقة المطمئنّة التي تعمر بها نفوس أولئك المساكين لمدهشة حقّاً.

---

[1] - تلك المريضة تدعى في الحقيقة ماري بايي، و إثر شفائها من التهاب صفاق سلّيّ قام الدكتور كاريل بالتحقيق في أمر شفائها، وقد اعتبر الدكتور بواساري هذا التحقيق " نموذجاً لعدم التحيّز و الدقة "، و أقدم هو نفسه على نشره .

جميعهم يرجون الشفاء، ورغم متاعب هذه الرحلة وطولها المتمادي، فهم جذلون مطمئنّون.

و لكن، ها قد أذنت الساعة الواحدة، ولا بدّ من العودة ".

– " عليّ أَن أَفحص، في الساعة الرابعة عشرة والنصف، ماري فيران، الفتاة المصابة بالتهاب الصفاق السلّيّ، التي ما فتئ وضعها يتفاقم. إِنّها، إِذا ما عادت على قيد الحياة، فسيكون الأَمر بمثابة أُعجوبة صغيرة، هيّا، تعالَ لتراها معي ".

و نهضا فاتّجها، كلاهما، نحو سيّدة الآلام السبعة.

كانت قاعة سيّدة الحبل بلا دنس موقوفة على المرضى الذين يتميّز وضعهم بالخطورة الشديدة، وهي تتكوّن من ردهة فسيحة، هادئة، ومعتمة، في طابق المستشفى الأَرضيّ، ولم يكن يتسرّب من نوافذها العالية ذات المربّعات الصغيرة المشرعة على دير، في عصر ذلك اليوم المشرق، سوى نور مُبهَم، أَغبر، بارد.

كانت رائحة اليود المنفّرة، تفوح في الجوّ، وإِلى جوار الجدران البيضاء المطليّة بالكلس، قد انتظم نحو عشرين سريراً، تعلوها أَغطية بنّيّة اللون، وكانت المريضات جالسات على كراسٍ، أو مستلقيات على الأَسرَّة بكامل ثيابهنّ، متأَهّبات للانطلاق نحو برك الاستحمام، وكان ليراك يمرّ بهنّ صامتاً، فمهمّة الطبيب في لورد مبسَّطة جدّاً، إِذ لا أحد يتوقّع منه شيئاً، بل الاعتماد منصبّ على العذراء القدّيسة. أَليست هي هنا لشفاء المرضى، وإِزالة الألم، والقضاء على الأَورام ؟ إِنّما الطبيب موجود لأَنّ القوانين تفرض ذلك، ولكن لا يُلجأ إِليه إِلاّ في اللحظات الأَخيرة، إِذا ما تأَكّدت الحاجة لإِعطاء حقن مورفين أو أَثير .

و اقترب من سرير الفتاة المصابة بالتهاب الصفاق السلّيّ، الذي وقفت إِلى جواره كلٌّ من رئيسة المستشفى، وفتاة ترتدي ثياب ممرّضات الحجّ البيضاء، الآنسة أو. التي التفتت، في الحال، بوجهها الجميل القلق، نحو ليراك، ودنت منه قائلة:

– دكتور، كنّا ننتظرك بنافد الصبر، فحالة مريضتنا قد تفاقمت سوءاً، وأفلت زمام الأَمر من يدي. هي تكاد لا تتكلّم، ويبدو لي أَنّ وضعها حرج جدّاً.

و دنا ليراك من السرير، وأَنعم النظر إِلى ماري فيران، التي كانت مستلقية على ظهرها، لا تبدي حركة، وكان وجهها الأَبيض الذي نال منه الهزال، منكفئاً على الوسادة، فيما ذراعاها المعروقتان تتكّئان على الزنّار، أَمّا تنفّسها، فكان سريعاً شاقّاً، وسألها ليراك برفق: كيف حالك ؟ ...

فالتفتت إِليه عينان باهتتان، وقد أَحاقت بهما دائرتان بنفسجيّتان، وانفرجت شفتان رماديّتان عن جواب مُبهَم.

وتناول ليراك معصمها، ووضع إصبعه على الشريان الكعبري، حيث كان النبض المجنون يُسجّل في الدقيقة مئة وخمسين ضربة متقطّعة، على غير انتظام. لقد كان القلب على وشك الانهيار، فقال للممرّضة: هاتي محقنة بريفاز لكي نعطيها في الفخذ حقنة كافئين.

و نزعت الممرّضة الأَغطية، وأَزاحت إِطاراً خشبيّاً مستخدماً في تثبيت كيس من الجليد فوق بطن المريضة.

و بدا جسم ماري فيران الهزيل، الذي برزت منه الضلوع تحت الجلد، والبطن المنتفخ. كان الورم يكاد يكون متماثلاً في كلّ جانب، بيد أَنّه كان أَكثر تضخُّماً بعض الشيء، في الجانب الأَيسر. ووضع ليراك يديه بلين، وتركها تنساب فوق السطح الأَملس، ضاغطاً عليه برفق، وبدا البطن وقد تمدّد بفعل موادّ قاسية، في حين امتلأَ بالسائل جزء منه، أَقلّ قسوة، في الوسط، عند السرّة، كان ذلك هو النموذج المعهود عن التهاب الصفاق السلّيّ.

و أَخذ المحقنة التي قدّمتها له إِحدى الراهبات، ومرّ بالإِبرة فوق شعلة الكحول، ثمّ غرسها في الفخذ المعروقة، وانسابت حقنة الكوكائين تحت جلد ماري فيران التي عبّر وجهها عن تشنّج مفاجئ.

و جسّ ليراك ساقيها المنتفختين حتّى الركبيتين، ولمس الأَنف واليدين حيث استقرّ البرد منذ الصباح، وأَمعن النظر في الأَذنين والأَظافر التي كان قد كساها لون ضارب إِلى الاخضرار.

ثمّ التفت إِلى آ. الواقف على حدة، وقد بلغ به التأَثُّر إِزاء مشهد المرض والأَلم هذا، وقال:

– إِنّه التهاب صفاق سلّيّ، في مرحلته الأَخيرة. يكاد السائل يكون قد زال تماماً، ويمكن لمس أَجسام صلبة في الجانبين. والدا هذه الفتاة قضيا نحبهما مصدورين، أَمّا هي فقد شرعت، منذ الخامسة عشرة من عمرها، تبصق دماً. في الثامنة عشرة أُصيبت بذات الجنب، واستُخرج من جنبها الأَيسر نحو ليترين ونصف الليتر من السائل، ثم منيت بكهوف رئويّة، وأَخيراً، منذ ثمانية أَشهر، ابتليت بالتهاب الصفاق السلّيّ، ومن اليسير لحظ ذلك. إِنّها تجتاز الآن مراحل الهزال الدنفيّ، وقلبها يخفق بلا انتظام. أَنظر إِلى هزالها، وإِلى لون وجهها وأَصابعها ... إِنّها ستموت قريباً. ربّما ظلّت على قيد الحياة بضعة أَيّام، إِلاّ أَنّ موتها محتوم.

و حين همّ ليراك، بالانسحاب، سألته الآنسة أو:

– دكتور، هل لنا أن نقود ماري فيران إِلى برك الاستحمام ؟

و نظر إِلها ليراك دهشاً متسائلاً:

– وماذا ستفعلون بها، إِن هي قضت نحبها، وهي في طريقها إِلى الاستحمام ؟

– هي كانت قد قالت لي أَنّها مُصرّة على الاستحمام ... وأَنّها إِنّما قدمت من أَجل ذلك.

عندئذٍ دخل الدكتور ج. وهو طبيب في مدينة مجاورة لبوردو، وكان قد صحب بعض مرضاه إِلى لورد، فتقدّم منه ليراك مستطلعاً رأيه حول ملاءمة نقل المريضة إِلى برك الاستحمام.

و من جديد نُزعت الأَغطية، والإِطار الخشبيّ، وكيس الجليد، وانحنى الدكتورج. على ماري فيران، ووضع أَصابعه المصفرّة ذات المفاصل العصبيّة، ونقر بها على جسم المريضة مُشخِّصاً، وأَنصت إِلى نبضها وخفقان قلبها ؛ وإِثر بضع لحظات أَعلن بصوتٍ خافت:

– إِنّها تحتضر، وربّما ماتت عند المغارة.

و أَضاف ليراك:

– ترين، يا آنسة، أَنّه ليس من الحكمة المضيّ بهذه المريضة إِلى برك الاستحمام ولكن، ليس لي هنا أَن آذن، ، أَو أَن أَمنع شيئاً .

و أَردفت الراهبة:

– ليس لهذه الفتاة ما تخشى فقدانه .. فسيّان إِن هي قضت نحبها اليوم، أو في غضون بضعة أَيّام، وسيكون من القسوة حرمانها السعادة القصوى التي تراها، هي، في أَن تقاد إِلى المغارة، ولو أَنّي أرتاب في استطاعتها الوصول إِلى هناك. في غضون بضع دقائق سننقلها...

و قال ليراك:

– على أَيّة حال، سأَذهب، أَنا أَيضاً، إِلى برك الاستحمام، فإِذا ما أُغمي عليها، عليك باستدعائي.

و أَودع جيبه زجاجة الأَثير، ومحقنة بريفاز، وخرج بصحبة آ. وج، وكان الدكتور ج. يردّد:

– ستموت هذه الفتاة حتماً.

و اعترض ليراك قائلاً:

– تعال معنا لنصحب ماري فيران إِلى بركة الاستحمام، ولنحاول مراقبة " الخارقة المستحيلة المتمثّلة في بعث ميتة "، فربّما قد نشهد ذلك، وإِنّني أتطلّع بفضول إِلى الوقوف على انطباع الجمهور حيال ماري فيران، ولا سيّما إِذا ما عَرَض أَنّ الأُعجوبة قد حدثت.

ثمّ مال نحو آ، وهمس في أُذنه:

– إِذا ما شفيت هذه المريضة، فسأومن بالمعجزات.

فوق الدرج الأثريّ الصاعد من الكنيسة السفليّة إلى الكاتدرائيّة الناصعة البياض، والتي تسمق ذؤابة قبّتها في السماء، كانت ساحة المسبحة الورديّة تسبح في النور .... وكان الوقت نحو الثانية بعد الظهر. بعض الحجّاج المتفرّدين كانوا يتوكّؤون على درابزين الكاتدرائيّة، التي كانت تبدو منطلقة في السماء، في أناقة ورشاقة، انطلاقة صلاة متأجّجة، واتّجه ليراك صوب برك الاستحمام، يتبعه ج. واجتاز الطريق العالي الذي كان يعكس ظلّه على التربة البيضاء المحيطة بمجرى السيل، وأحسّ بالنداوة السائدة تحت الأشجار. وكانت نسمة عطرة تخطر في الجوّ الرقيق. ولم يكن المرضى قد وصلوا بعد. مقابل مجرى السيل، في المياه المتدفّقة الباردة، كان يمكن مشاهدة أبنية برك الاستحمام الزرقاء، القابعة تحت أشجار الدلب الوارفة الظلال. درابزين من حديد كان يحيق بفسحة نصف دائريّة، مخصّصة لإيداع المحفّات، وعربات المرضى، في منأى عن الجمهور، أمّا صفوف الحجّاج فكانت تحتــلّ الحيّز الواقع بين الدرابزين ومجرى السيل.

و دخل ليراك، فجلس على مقعد خشبيّ، عند باب بركة استحمام النساء، فيما كانت نسمة رقيقة تداعب أوراق الدلب الدكناء، ومِزَقٌ من الشمس تتحرّك برفق على الأرض المبلّطة، وسلسلة التلال الواطئة، حيث انتشرت المزارع بجدرانها البيضاء، كما كان يطالع زرقة السماء المتوهّجة، حيث كانت تنساب بعض الغمامات المضيئة.

و في البعيد أطلق جرس نداءه، بصوته الفضّيّ، وأخذ صرصار يردّد نشيده. كان منظراً من نداوة هادئة، وفرح، وراحة، وكان سكون تلك الساعة العذب يبدّد هواجس ليراك العلميّة، وهمَّ العودة الذي كان يلازمه. كان يتذوّق، على عجل، السحر الفريد المنبعث من أرض لورد، حيث، تحت ضوء لا توصف عذوبته، كانت تأتي وتتجلّى جميع معالم البؤس البشريّ.

عمّا قريب، عندما تأذن ساعة الاستحمام، سيحلّ، مكانَ جمال الأشياء الرائع، القبحُ البشريّ البائس المتمثّل في قروح، وأورام، وشتّى ضروب البشاعة التي تَتَكشّف، جاهرةً عن نفسها، أملاً في الخلاص.

ووصل فريق من الحجّاج، وكان آ. ورجل آخر محتذٍ نعلاً أصفر اللون، موثقين إلى إحدى المحفّات، حيث كانت ماري فيران ترقد على ظهرها، شديدة النحول، تحت الغطاء البنّيّ، الذي اتّخذ شكل قبّة، عند مستوى البطن. كان تنفّسها سريعاً وقصيراً، وقد أمسكت الآنسة أو، فوق وجهها الذي يحاكي وجه أموات، مظلّة بيضاء مشرعة. ذلك المنظر الذي يبدو عاديّاً في إطار المستشفى، كان يُحدث، تحت الضوء الساطع، الذي يبرز كلّ التفاصيل، انطباعاً مزعجاً.

قبل الدخول إلى بركة الاستحمام، وُضعت المحفّة، لحظةً، على الأَرض، وبدت المريضة، وكأَنّها قد فقدت الوعي، وأمسك ليراك بمعصمها حيث كان النبض في مثل هذيان، أَمّا وجهها فقد بات بلون التراب، وحطّت، عند فرجة الأَنف، ذبابة خضراء، فطردتها الآنسة أو. بمنديلها.

و جهّز ليراك، إلى جانبه على المقعد، محقنة بريفاز، وزجاجة الأَثير، وراح ينتظر، وطافت بفكره هذه الخواطر: " ما أَعسر، على الطبيب، تحديد مستقبل مريض، فمن الجليّ أَنّ هذه الفتاة هالكة، ولكن لا قِبَل لي بمعرفة أوان موتها. أَهو في غضون ساعة أَو ثلاثة أَيّام، أَم أربعة. وإِذا ما هي قضت نحبها في بركة الاستحمام فلديّ فضول لرؤية ما سيُحدث موتُها من أَثرٍ على الحجّاج، إِذ إِنّه سيكون بمثابة إِفلاس المعجزة ".

و دقّت ساعة الكنيسة الثانية، فيما كانت العربات الصغيرة التي يجرّها الحمّالون تتوافد زرافات، يواكبها حشدٌ من الحجّاج.

و جلست إِلى جوار ليراك امرأة أَنيقة المنظر، وقد أسدلت على وجهها برقعاً أسود صفيقاً، وكان شيء أحمر اللون يتراءى من خلال قماش الكريب، الذي كان يخفي وراءه وجه ميتة، قد خلا منه الأَنف، وطبع داء القراض عليه وشياً قرمزيّاً، وفراشات حزينة. وكان شابّ في ثياب حداد، وقفّازات رماديّة فاتحة، يجرّ، في عربة، امرأة قبيحة الشكل، ترتجّ لها غدّة درقيّة منتفخة هلاميّة، وإِلى جانبها كانت تجلس امرأة شابّة، شُلَّ جانبها الأَيمن، ثمّ دُفِع إِلى قربها ببلهاء طويلة الجسم، كانت لا تنفكّ تدمدم، وهي تهزّ برأسها، فيما تدلّى لسانها الضخم من فمها، وسال منه اللعاب. وكانت عربات أُخرى لا تفتأ تتوالى.

بادئ الأَمر، استحوذ على ليراك التأَثُّر حيال آلام المرضى، وصيحاتهم، ولكن بين ظهراني أولئك البؤساء، أَخذ يتولّد لديه شعور غريب، فهو المفعم شباباً وحيويّة، كان معنيّاً بيأس أولئك الأَفراد، وهم، رغم شبابهم، قد حرموا النشاط والحرّيّة، وفُرض عليهم الانحباس في غرفة، وقيِّض لهم أَلاّ يعرفوا، يوماً، رعشة حبّ.

و تركّز فكره على ماري فيران، التي اطّلع، عن كَثَب، على قصّة حياتها، حياة مسلولة تصرّمت في المشافي. لقد مرّت عبر ذات الجنب، إِلى التهاب الصفاق السلّيّ، وها هي قد أَشرفت على الموت، قبل أَن تخبر من الحياة سحر الربيع والحبّ، ومع ذلك، كانت أَقلّ تعاسة ممّا يبدو عليها، إِذ كانت تؤمن بالمسيح الذي كان أَملها، وشاغلها الوحيد.

إِنّ موت المؤمن على قدرٍ لا يُقاس من الروعة، فهو المدخل إِلى جوار العذراء ويسوع، ويالها من صورة عذبة ! كم يجب أَن يكون منقطع النظير سحر يسوع هذا، بحركاته الهادئة، في اخضلال جبال يهوذا الربيعيّ، وهو ينهض لإِلقاء خطبته على الجبل التي لا يحدّ

روعتها وصف. لقد كان يوفّر للمتألّمين التعزيات الأَبديّة، وكم يحسن الإِيمان بها ! والعذراء الرقيقة، الحامية، والمتحنّنة على جميع الآلام، يا لها من صورة سنيّة !

" آه، كم كنت أودّ أَن أومن، نظير جميع هؤلاء البؤساء ! إِنّك، أَيّتها العذراء مريم، لستِ نبعاً لذيذاً ولدته أَدمغتنا، فحسب. إِشفي، إِذن، هذه الفتاة، فكفاها ما عانت من عذاب. ائذني لها أَن تحيا قليلاً، وادفعيني إِلى الإِيمان.

عندما ينعدم تأثير الملاحظات الواقعيّة، لا يبقى سوى الإِنسان، تتقاذفه النظريّات، والنزوات الهوجاء. إِنّ ما أَشهده الآن، لعلى قدرٍ كبير من العقلانيّة، فإِذا ما برئت هذه الفتاة، وهو أمر يتعارض مع المنطق، إِجعليني أومن، عندما سأراها وقد عادت إِلى الحياة، فعلاً، عند خروجها من الاستحمام ".

و كان المرضى يتوافدون باطّراد، وكان يشاهد الرجال من جانب السور الآخر. الشابّ ذو الرأس الذي يحاكي رأس المسيح، وهو مخطوف العينين، في وجه أَصفر مجوّف، كان ملقى على محفّة، يشعّ رجاءً، والصبيّ الذي كان داء " بوت " قلَّص فخذيه حتّى صدره، كان يتلو مسبحته بحميّة، وقد انكفأ على ذاته، داخل عربته الصغيرة.

و بفمه المعوجّ الذي شدّه الورم إِلى أَعلى، كان ج. د يتمتم صلاة وقد تسمّرت عينه السليمة على السماء. جميع مرضى قاعة المستشفى، كانوا، في تلك اللحظة، ممدّدين على الأَرض، وعلى جميعهم تبدّت أَمارات السكون والسعادة، ووصل س. م. ووجهه يتصبّب عرقاً، تحت طاقيّة سوداء، وانقضّ نحو المرضى، ورجا الحمّال أَن ينظّم وضع المحفّات، فقد كان هو سيّد التنظيم الأَعلى. وانتصب كاهن شابّ، في مكانٍ ظلّ خالياً، وسط المرضى، وهَمَّ ببدء الأَدعية الكبرى، فيما، وراء المقاعد الخشبيّة، حتّى مجرى السيل، كانت قد تراصّت كتلةٌ متموّجة من وجوه بيضاء، ورؤوسٍ مكشوفة. ومرّت عربة صغيرة، تُقلّ ماري فيران، فدنا منها ليراك، على عجل، ليتبيّن أَنّ أَيّ تطوّر لم يطرأ على حالها. كان وجهها لا يزال ممتقعاً، وجسمها هزيلاً، وبطنها متضخّماً، على غير تفاقم ظاهر.

و قالت الآنسة أو.: لقد غسلوا بطنها بعض الشيء، فحسب، إِذ إِنّ السيّدات المشرفات قد رفضنَ تغطيسها، كلّيّة، بالماء، وسننطلق بها إِلى قرب مغارة مسَّابييل، وأَجاب ليراك:

– " سألحق بكم في غضون دقائق. إِنّ وضعها يبدو ثابتاً، ولكن بوسعكم استدعائي إِذا ما تفاقم "

و جثا الكاهن إِزاء المرضى والجمهور، ورفع نحو السماء ذراعيه على شكل صليب. لقد كان شابّاً، وعلى وجهه الأَبيض السمين، المتصبّب عرقاً، كان ينتشر النمش. إِيمانه المتّقد، وعيناه اللتان تحاكيان عيني طفل، كانت تحميه من أَن يبدو مثيراً للسخرية، وكان يتفجّر من

دعائه قدرٌ من الرجاء جمّ، بحيث يمكن القول أنّ دعاءه هذا كان يتصاعد مباشرة نحو العذارء.

كان يهتف وهو يلوي فمه ببراءة: " أيَّتها العذراء القدّيسة إشفي مرضانا ". فيردّ عليه الجمهور، في صيحةٍ جبّارة تتهادى كالموج: " أيَّتها العذراء القدّيسة، إشفي مرضانا ".

– " أيّتها العذارء القدّيسة، استجيبي لدعائنا ".

– " أيّتها العذراء القدّيسة، استجيبي لدعائنا ".

– " يا يسوع، نحن نحبّك "

– " يا يسوع، نحن نحبّك "

و كان هتاف الجماهير يشتدّ عزماً، أكثر فأكثر.

و كانت تُشاهَد أذرع تتعالى فوق الرؤوس، وكان المرضى يحاولون النهوض، ما استطاعوا، على محفّاتهم، والتوتّر يتصاعد شيئاً فشيئاً .

و هبّ الكاهن واقفاً، وقال: لنصلِّ يا إخوتي، وأذرعتنا على شكل صليب. فامتدّت جميع أذرع الجمهور، وكأنّ تيّاراً قد عبر به. شيء لا يُدرَك، جبّار، لا يُقاوَم، صامت، كان يجري بين أفراده، مستحثّاً الإرادات، مثل إعصار على رأس جبل.

و كان ليراك يؤنس، على نحوٍ مُبهَم، هذا الانطباع القويّ، الذي لا يطاله تحليل، يمسك بخناقه، ويشنّج ذراعيه، وراودته رغبة في البكاء، لم يدرك لها سبباً.

كم كان يجب أن يكون بالغاً تأثّر المرضى، الذي يزيده وهَنُهم تفاقماً ! إن كان رجل في ميعة صحّته، مثل ليراك، قد بلغ به التأثّر هذا المبلغ، وكان يرنو، في قلق، إلى جميع المرضى، ولاسيّما مرضى الأعصاب، ويتوقّع أن يراهم ينهضون ويصيحون معلنين شفاءهم بفرح، ولكنّ أحداً لم يتحرّك.

و اجتاز صفّ العربات الصغيرة، عبر الجُمهور، قاصداً المغارة، ثمّ جلس على حاجز مجرى السيل، وتأمّل حشد الحجّاج، حيث تعرّف طبيباً متمرّناً شابّاً، قادماً من بوردو، هو م. م. الذي كان قد التقاه في العشيّة، فسأله: هل من حالات شفاء ؟

– لا، فقط بعض المصابين بهوَس قد شُفوا، وليس في الأمر ما يتعدّى غرابةً ما نشاهده في المستشفيات.

فقال له ليراك:

– تعالَ، إذن، وشاهد مريضتي، إنّها ليست مثيرة للاهتمام كثيراً، غير أنّ حالتها مقلقة، ولا بدّ أنّها عند المغارة.

– لقد رأيتها منذ دقائق. إنّه لمن المؤسف، حقّاً، أن يُسمح لها بالقدوم إلى لورد، إذ كان من الأفضل إجراء عمليّة جراحيّة لها، ولا يبدو أنّ رحلتها إلى المغارة ستجديها فتيلاً.

كانت الساعة تشارف الثانية والنصف، والمغارة تسطع بألوف الشموع، تحت صخرة مسَّابيل، وقد كست جدرانها ومداخلها السبحات والعكّازات. ومن خلال الشبك الحديديّ الذي يحول دون الوصول إليه، كان ينتصب تمثال العذراء، واقفة، في تجويف الصخر، حيث كانت، فيما مضى، برناديت قد رأت السيّدة البيضاء الساطعة، سيّدة الحبل بلا دنس.

و عند أَقدام العذارء، كان موقع مربّع فسيح، يحدق به درابزين، مُخصّصاً للمرضى، الذين كانوا، على هذا النحو، يحتلّون مكان الشرف، إلى جوار المغارة.

و كان مضيفو سيّدة الخلاص يقفون عند المداخل للحؤول دون التدافع والتزاحم، ولتيسير حركة العربات الصغيرة والمحفّات، وفي طرف المكان الخالي، في الصفّ الأَوّل، عند الحاجز مباشرة، ميّز ليراك الآنسة أو. فشخص برفقة م. إلى المغارة، واستطاعا احتلال مكانٍ أَمام الحاجز، بحيث يتمكّنان من الإلمام بمشهد المرضى والحجّاج على السواء.

و اتّكآ على الدرابزين الواطئ، قريباً من ماري فيران، التي كانت تبدو في مرحلة احتضار، وهي ملقاة على المحفّة، جامدة، في حين كان صدرها يتعالى بفعل تنفّس متسرّع، ووصل بعض الحجّاج، ودخلت السيّدة ذات البرقع الأَسود، فوقفت إلى جانب المحفّة، في الصفّ الأَوّل، وعندما رفعت قناعها، تهيّأ لليراك مشاهدة وجهها الدميم. أَمّا الآنسة أو. فجثت، في حركة رشيقة، وكانت تبدو أَنيقة الشكل، وقد ظلّلت رموشها الطويلة وجهَها، برفق. كانت تصلّي، في حرارة، ولا بدّ أَنّها كانت تستجلب المعجزة.

و كان مضيفون، وحمّالو محفَّات يتراصّون كُثُراً ؛ ثمّ توافدت العربات، واحدة فواحدة، وانتظمت البلهاء ذات اللعاب السائل، والقبيحة ذات الغدّة الدرقيّة الهلاميّة، إلى جانب ماري فيران، ودخل س. م، فجأة، وقد انتفتح صدره تحت الأوسمة، ولا سيّما الوسام الحبريّ، وقد اهتزّت جميع أَعطافه زهواً.

ووقع نظر ليراك على ماري فيران، فبدا له أنّ منظر وجهها قد تغيّر، وأَنّ ظلال الامتقاع قد تبدّدت، وأَنّ جلدها قد بات أَقلّ شحوباً، وأَخذ يكلّم نفسه:

– إِنّني أَتعرّض للهلوسة. إِنّها ظاهرة نفسيّة جديرة بالاهتمام، يجدر تسجيلها.

و أَخرج قلم حبر، ودوّن على كمّه ساعة ملاحظته: كانت الثالثة إِلاّ ثلثاً.

غير أَنّه استدرك: ولكنّني، حتّى هذا اليوم، لم أَتعرّض للهلوسة، ثمّ التفت إلى م. وقال: أنظر إلى المريضة. أَلا يبدو لك أَنّ منظرها قد تبدّل ؟

و أَجاب م.:

– إِن كان هناك تحوّل، فهو من الضآلة بمكان. إِنّني أَلحظ فقط أَنّ حالتها لم تتفاقم سوءاً.

و تقدّم ليراك، وعدّ النبضات، وقاس سرعة التنفّس، وبعد لحظة قال لـــ م.

– إنّ التنفّس قد تباطأ.

فردّ م .، وهو غير مؤمن، وغير قادر على أن يرى في الأمر شيئاً غريباً، أو ما يشبه المعجزة:

– إذن، يلوح لي أنّها، الآن، قد أشرفت على الموت.

و لم يُحِرْ ليراك جواباً، ولكنّه كان يلمس تحسُّناً جليّاً وسريعاً في الحالة العامّة، وشعر أنّ حدثاً ما على وشك التحقّق، غير أنّه قاوم انفعالاً عابراً. كان متّكئاً على الحاجز، وقد انشدّت جميع ملكات انتباهه نحو ماري فيران، لا يرى سواها أحداً. في تلك الأثناء، كان الكاهن يلقي عظة على مسامع جمهور الحجّاج والمرضى، وكانت تراتيل وأدعية تتفجّر، ووجه ماري فيران لا يفتأ يتحوّل، وقد شخصت منها العينان البارقتان في ذهول نحو المغارة. تحسُّنٌ هامٌّ كان قد طرأ، وكانت الآنسة أو. تنحني على ماري فيران وتساندها.

فجأة شعر ليراك أنّ الشحوب قد عراه، فقد شاهد، عند الزنّار، الغطاءَ يغور شيئاً فشيئاً، حتّى مستوى البطن، ولدهشته لفت نظر م .، الذي قال:

– حقّاً، يبدو أنّ هناك انخفاضاً، ولكن لا بدّ من أن يكون الغطاء قد هبط.

و دقّت ساعة الكنيسة الثالثة. بعد بضع دقائق، كان ورم البطن يبدو وكأنّه قد تلاشى كلّيّة، وجال في خاطر ليراك: أظنّ أنّني، حقّاً، قد فقدت رشدي. ودنا، حينئذٍ، من ماري فيران، وراقب تنفّسها، وعنقها. كان القلب لا يزال متسرّعاً، ولكنّ خفقاته عادت طبيعيّة. من المؤكّد أنّ حدثاً كان يجري، وسألها:

– كيف تشعرين ؟ ...

فأجابت ماري فيران بصوت خافت:

– إنّني على أحسن حال. لست قويّة بعد، ولكنّني أشعر أنّني قد برأت.

و لم يبقَ للتردّد مكان. فحالة ماري فيران كانت تتحسَّن، بل قد بات من الصعب تعرُّفها.

لقد ساور ليراك اضطراب شديد. وبات عاجزاً عن التفكير. ومن غير أن يغادر مكانه أحاط م. والآنسة أو علماً بما كان يحدث.

كانت الآنسة أو. تشهد ذلك الأمر العجيب، في دهشة تحاكي دهشة طبيب وهو يشهد التئام كسر. إنّها كانت قد ألِفت مثل هذه الأمور.

أمّا ليراك، فلم ينطق بحرف، وأقلع عن التفكير، فذلك الحدث غير المتوقّع كان يتعارض مع كلّ توقّعاته، بحيث ظنّ أنّه في حلم.

و قدّمت الآنسة أو. كوباً مليئاً بالحليب إلى ماري فيران فشربته كلّه، ثمّ بعد فترة وجيزة، رفعت رأسها، وتطلّعت فيما حولها، وتحرّكت قليلاً، فمالت على جنبها من غير أن تبدر عنها أيّة أمارة ألم.

و نهض ليراك فاجتاز صفوف الحجّاج المتراصّة، وسط أدعيتهم التي يكاد لا يسمعها، ومضى، وكانت الساعة تشارف الرابعة.

لقد تحقّق المستحيل، غير المتوقّع ؛ لقد تمّت المعجزة ؛ لقد برئت تقريباً فتاة محتضرة.

كان لا يزال يجهل حال الإصابات الفعليّ، غير أنّ تحسّناً وظيفيّاً، كان، في الواقع، قد جرى تحت بصره، وسيتأكّد عمّا قريب، أنّ ذلك التحسّن كان عجيباً، وفي أيّة بساطة !

الآنسة أو. وهو كانا الوحيدين الواقفين على حقيقة المعجزة.

و عاد إلى ساحة المسبحة الورديّة.

كان مكتب التحقيقات الطبّــيّة يقع تحت قناطر الدرج الأثريّ، بالقرب من مركز مضيفي سيّدة الخلاص. عندما وصل ليراك، رأى الدكتور بواساري، مدير مشفى لورد، وكان واقفاً عند الباب، فحيّاه، وروى له، في الحال، الأُمور العجيبة التي كان لها شاهداً. ورنا إليه بواساري، في غير دهشة. كان رجلاً مسنّاً، قصير القامة، ممتلئاً، ذا وجه عريض أمرد. كانت عيناه الباهتتان تكمنان تحت حاجبين داكنين ناتئين، ولكن كان يمكن مشاهدة برق يتفجّر فجأة تحت الجفون المسبلة. كان ليراك قد اطّلع على مؤلّفاته، ولئن كان لا يؤمن بصلاحيّة أساليبه النقديّة، إلاّ أنّه كان يُكبِر فيه خلقَه وذكاءَه .

و على أيّة حال، كان الدكتور بواساري قد استقبل ليراك بأجمل ترحاب، وأعطاه في كياسة لا ينضب لها معين، جميع المعلومات الممكنة. لقد كان بواساري قد نصّب نفسه محامياً عن لورد، بدافع القناعة، لا بدافع المصلحة، وبصفته طبيباً ذكيّاً، مخلص النيّة، كان قد دوّن، في كتب شهيرة، حالات الشفاء الخطيرة الشأن، وكان يستأهل الإعجاب الذي يحقّ لكل قناعة مخلصة، ولكلّ تضحية. وكان قد ثبت في مكانه، لدى سماعه رواية ليراك، وإذ كان هذا الأخير يتحدّث عن تحسّن وظيفيّ فحسب، غير متطرّق إلى برء الإصابات، قال له بواساري باطمئنان: إنّ مريضتك قد برئت، أو على الأقلّ إنّ احتمال شفائها كبير، هاتها إلى العيادة منذ الغد.

و أجاب ليراك:

– بل سأهرع للتحقّق من الأمر، فور رجوعها إلى المستشفى، وسيكون الحدث مذهلاً.

وأردف الدكتور بواساري:

– أمس كنت أقول لك أنّ الأورام، والسرطان، والسلّ، تبرأ بفعل قوّة تبدو مستحيلة، وهذا أمر لا بدّ من التسليم به. أمّا التهاب الصفاق السلّيّ، فهذه ليست الحالة الأُولى. لقد تمّت تحقيقات في حالات مماثلة، وعلى نحوٍ خاصّ، في حالة الأب سلفاتوري، الكاهن الذي قدم إلى هنا في حالة احتضار، من جرّاء السلّ الرئويّ، والتهاب الصفاق، وقد شفي خلال خمس دقائق. وفي العام الفائت، في مثل هذا الوقت من السنة، وضمن حجّ قادم من ليون، شفيت فتاة هي الآنسة د. في غضون دقائق معدودات، من التهاب صفاق حادّ جدّاً.

و قفل ليراك عائداً إلى فندقه، عازماً على الامتناع عن أيّ بحث قبل التأكّد ممّأ حدث، على نحوٍ ثابت، إلاّ أنّه كان يؤنس سعادة عارمة، إذ قد بلغ أرب رحلته، وتسنّت له فرصة نادرة، كي يرى حدثاً.

و لم يكن قادراً على منع نفسه من التفكير: لم يكن ممكناً أن تكون حالة التهاب صفاق ذات منشأ عصبيّ، فقد كانت الأعراض جليّة، وعلى أتمّ وضوح، ورغم ملاحظات بواساري، كان ليراك شديد الاهتمام بما سيقف عليه. وفي الساعة السابعة والنصف ارتدّ إلى المستشفى، متحرّقاً فضولاً وقلقاً.

كانت الشمس قد اختفت خلف ذؤابات التلال، وفي سكون النهار المتصرّم، كان المرضى يصعدون من جديد إلى المستشفى، على محفّاتهم، أو في عرباتهم الصغيرة، على إيقاع التسابيح وأنغام "السلام يا مريم ". وبعضهم كانوا يسيرون، مشرقي الوجوه، بين ظهراني ذويهم وأصدقائهم، ومجهولين جذبهم سحر المعجزة الذي لا يُقاوَم.

أولئك هم الذين أوتوا امتيازاً وبركة، وألقت عليهم عذراء الرأفة نظرها، لحظة، أمّا الآخرون، البؤساء الذين عصر السرطان أحشاءهم، فكانوا سيعودون، هم أيضاً، إلى ردهات المستشفى ليتألّموا، ولكن مع ذلك، تجلّت فيهم السعادة، إذ كان يلازمهم يقين صامد بأنّ يسوع سيحضر من فردوسه لشفائهم.

و كان ليراك يتساءل: أيمكن أن يكون الفرض المستحيل قد أمسى واقعاً؟ ...

و فتح باب قاعة سيّدة الحبل بلا دنس، وخفّ الجميع نحو سرير ماري فيران، وانعقل لسانه، فالتحوّل كان خارقاً .

كانت الفتاة في قميصها الأبيض، جالسة فوق السرير، وعيناها تلتمعان في وجهٍ ما زال رماديّ اللون معروقاً، إلاّ أنّه متحرّك حيّ، وعلى شيء من الحمرة في الخدّين. عند ملتقى الشفتين المطبقتين، كان لا يزال تغضّن أليم، طبعته سنوات العذاب. ولكن، من كلّ كيانها كان ينبعث شعور بالسكينة يندّ عن الوصف، يشعّ فيما حولها، ويضيء بالفرح القاعة الحزينة.

و قد بادرت ليراك الذي دنا منها بالقول: سيّدي الدكتور، أنا قد شُفيت تماماً، ما زلت أَشعر أَنّني مفتقرة إِلى القوّة، ولكن يلوح لي أَنّي، لو عزمت، لاستطعت السير. وأَمسك ليراك بمعصمها، فإِذا بالشريان الكعبريّ، تحت إِصبعه، يخفق على نحوٍ منتظم هادئ، ثمانين مرّة في الدقيقة. وذكر كم كانت وتيرته قد تسرّعت خلال الأَيّام الفائتة كما كان يشير، آنذاك، النبض المتقطّع، المتسرّع، الذي كان يكاد لا يعدّ، وكذلك التنفّس قد عاد طبيعيّاً، والصدر بات يرتفع بتؤدة وانتظام.

و لكنّ ليراك كان ما يزال يتساءل:

– أهو شفاء ظاهريّ فحسب ؟، تحسّن وظيفيّ مدهش ؟ ضربة سوط أنزلها بالجسم إِيحاء ذاتيّ مكثّف ؟ أو إِنّ الإِصابات قد زالت فعلاً ؟ هل هو حدث نادر، ولكنّه معروف، أم هو واقع جديد، أمر مستحيل، مذهل: المعجزة ؟ ...

و قبل أَن يفحص بطن ماري فيران، في محاولة لحلّ الإِشكال، انتابته لحظة قلق وتردّد، وكان يرتعش رغبة وخشية، في آنٍ معاً، وانتزع الغطاء، وتأمّل، فبدا الجلد أبيض أَملس، وتحت الخصر الضيّق، رأى البطن صغيراً، مسطّحاً هابطاً، كما هو حال شابّة في العشرين تعاني هزالاً شديداً. حينئذٍ وضع يديه على جدار الجوف، فتبدّى له ليِّناً، مرناً، شديد الرقّة.

و كانت الأَنامل الفضوليّة تنتقل، فلا تحدث أَيّ أَلم، جاسّة كلّ جوانب البطن، والخاصرة والحوض، بحثاً عن الورم، وعن الكتل القاسية التي كانت قد تبخّرت، تبخُّرَ حلم، وعاد كلّ شيء طبيعيّاً. وحدهما الساقان كانتا لا تزالان منتفختين.

لقد كان الشفاء تامّاً، وقد انكفأت تلك المحتضرة، المزرقّة الوجه، المنتفخة البطن، الشاردة القلب، في غضون ساعات معدودات، فتاة شبه طبيعيّة، وإِنّما قد نال منها الهزال والوهن.

و أَحسّ ليراك بقطرات عرق تنساب على جبينه، وكان يشعر وكأَنّه قد تلقّى لكمة بقبضة يد، على رأسه، وكانت شراييِنه تخفق. وتصلّب في جمود مطلق، خالٍ من أَيّ انفعال. وفي تلك الأَثناء، مرّج. مع م. فقال ليراك ل م. الذي دخل من غير أَن ينتبه له، فوجده بغتة أمامه:

" يبدو أَنّها برئت. إِفحصها مرّة أُخرى، فأنا لم أجد فيها أَيّة علّة ".

و لجأ الطبيبان ج. وم. إِلى جسّ البطن، فيما كان ليراك يقف خلفهما، متتبّعاً، بعينين متألّقتين، حركات زميليه، وكان يقول لنفسه: " إِنّ هذه الفتاة قد برئت تماماً، لا جدال في ذلك. إِنّني لم أَشهد، يوماً، أَمراً على هذا القدر من الإِثارة. أَيّ انطباع مريع وعذب يخلِّف هذا المشهد الفريد، منظر الحياة تعود، سريعة، إِلى جسم كادت تدمّره سنوات من المرض ! فوق

كلّ جدال، هناك حدث موضوعي: شفاء فتاة كانت مصابة بداء على قدرٍ من الخطورة شديد. إنّه تحقيق المستحيل، أو إنّني ربّما أخطأت التشخيص، وربّما كانت حالة التهاب صفاق عصبيّ المنشأ.

و لكن لم تكن أَمارات التهاب صفاق عصبيّ، بل إنّ كلّ الأَعراض كانت تشير إلى التهاب صفاق سلّيّ. لقد قضى أَبواها من السلّ، وكذلك إخوتها، وقد ابتليت بذات الجنب السلّيّة المتكرّرة، إذ إن طبيبها قد انتزع منها ليترين من السائل، وأُصيبت بالسلّ الرئويّ، ونفثت الدم، وقد شخّص الأَطبّاء والجرّاحون التهاب صفاق سلّيّ، وحسب جميع الظواهر لم يكن ممكناً إصدار أَيّ افتراض آخر، بعد جسّ بطنها. لو أَنّي لم أدوّن مراحل مراقبتي لها، لارتبتُ في دقّة ذكرياتي. إنّه من المؤكّد، قطعاً، أَنّ حالتها العامّة كانت شديدة الخطورة، وقد برئت.

إنّها لمعجزة، المعجزة الكبرى، التي تثير حميّة الجماهير، وتدفعهم، في انقضاضٍ مجنون، نحو لورد، وهم في ذلك على حقّ.

مهما كان منشأ هذا الحدث المدهش، فالنتيجة رائعة ومجدية. أَيّة مصادفة سعيدة أَن تشهد شفاء تلك التي كانت معرفتي لها هي الأَوثق، بين سائر المرضى، والتي تقصّيتُ حالتها طويلاً !

و لكن، ها أَنذا مُقحَم في قضيّة أعجوبة، وما هَمّ ؟ مهما غلا الثمن سأمضي حتّى النهاية، كما لو كان الأَمر يتعلّق بتجربة على كلب، لا أَبغي أَن أكون هنا سوى آلة تسجيل دقيقة.

و إذا كان الأَمر أُعجوبة حقّاً، فلا بدّ من التسليم بوجود قدرة تفوق الطبيعة. كلّ ذلك مدهش. أَيّة قوّة تلك التي تخرج من مياه لورد ؟ في الحقيقة أَنا لا أَفهم شيئاً ... " ثمّ سأل م. الذي جسّ بطن المريضة طويلاً:

– هل تجد شيئاً ؟.

– لا شيء مطلقاً، ولكنّني سأتسمّع إلى الرئتين.

ووضع م. أُذنه على صدر ماري فيران، في حين كان ج. يعدّ خلجات قلبها، والدكتور ك. يراقبها، وهو إيطاليّ قد ارتدّ إلى الإيمان الكاثوليكيّ، بعد أَن قضى في ربوع أوروبا سنوات، غارقاً في التمتّع بملذّات الحياة.

و كانت الآنسة أو. إلى جانب ماري فيران، ترنو إلى مريضتها، في دهشة وجزع، وقد أَتعب الإرهاق ملامحها الجميلة. وكانت بعض النسوة قد اقتربنَ من السرير، وأَحطنَ به، وساد الصمت. أَمّا ماري فيران، التي كانت تُجَسّ وتُعجَن، وتدلَّك من كلّ صوب، فقد كانت مشرقة، وكان فرحها، وسعادتها الصامتة، ينتقلان إلى الجميع، بحيث طاف في جوّ القاعة انطباع فرح ساكن وسلام.

و كان الليل يهبط، والنور الهادئ المنبعث من النهار المتصرّم يتسرّب من النوافذ العالية المشرعة، وفي صفاء السماء الذهبيّة، كانت فينوس تسطع بألَق أخضر. وفرغ الطبيبان، أخيراً، من فحصها، فأعلن الدكتور ج. متأثّراً:

– لقد برئت.

– وأضاف م.:

– أنا لا أجد فيها علّة، تنفّسها طبيعيّ تماماً، ولم تعد تعاني أيّ داء، وبوسعها أن تنهض الآن.

و تابع الدكتور ج.:

– لا يمكن تفسير هذا الشفاء بالوسائل الطبيعيّة.

و لاحظ الدكتور ك.

– إنّها لمعجزة كبيرة. هل سترتدّ يا سيّد ليراك ؟ أنا قد صلّيت كثيراً من أجلك.

و قال ليراك بصوت منخفض:

– إنّها فعلاً معجزة، إنّني لم أخطئ التشخيص.

ثمّ ظلّ صامتاً، وقد استحوذ على ذهنه اضطراب شديد، ولم يعد يقوى على تكوين رأي. بمَ يجيب، عندما سيقال له أنّ الشفاء كان أُعجوبة ؟ لقد كان عاجزاً عن أيّ تفكير. أتكون معجزة حقّاً، أرادت العذراء من خلالها إقامة الدليل على وجودها الموضوعيّ ؟ ولمَ لا؟. إذن، لم يبقَ له سوى الإيمان بالمعجزة. أهي أُعجوبة حقّاً ؟ لا بدّ من الانتظار سنة أو سنتين.

و لكن ما جدوى جدلنا العقيم حيال سعادة هذه الفتاة، التي كانت تسوق حياة تبعث على الرثاء، وها هي ستعيش من جديد، وستحبّ، وسترى الشمس، والهواء. ستعيش فعلاً، تلك هي النتيجة، الواقع المعجز، الحدث السعيد.

ماذ ستفعلين الآن، وقد اقتنعت بإمكانيّة معجزة شفائك ؟

– سأقصد راهبات القدّيس منصور، وسأنتسب إليهنّ، وسأعنى بالمرضى.

و انسحب ليراك، لئلاّ يلحظ أحد تأثّره.

و بعد أن فحص بعض المساكين، غادر المستشفى. كان الليل قد أمسى كثيفاً، وما زال بعض المرضى المتباطئين يثوبون إلى مهاجعهم. وكان رجل مسنّ، مرتدٍ معطفاً أصفر، يجرّ في عربة صغيرة، امرأة بلهاء، وقد راحت غدّتها الدرقيّة الهلاميّة ترجّ على صدرها، وربّما كانت قد نُسيت عند المغارة حتّى تلك الساعة المتأخّرة. وكان الشابّ الذي التهم السرطان وجهه يسير إلى جانب الكاهن، وجميع الحجّاج الأصحّاء، كانوا على غراره، ينحدرون نحو ساحة المسبحة الورديّة، حيثُ كانت ستبدأ، بعد حين، الطقوس الليليّة. وفي نهاية شارع

المغارة، كانت الكاتدرائيّة تبرز شاخصة نحو السماء، متوهّجة بالألوان الزرقاء والخضراء والحمراء، المنبعثة من ألوف المصابيح الكهربائيّة، في حين تدلّت من حاجزي درجها الجبّارين المؤدّيين إلى الباب الرئيسيّ، ألوف الأنوار، هابطة نحو الساحة التي اتّقدت فيها أيضاً أمواج الضياء، وكان ثعبانٌ ضخم من النور ينشر حلقاته على الفناء الخارجيّ.

و كانت تتصاعد من شتّى جوانب الحشد الغفير، تراتيل غير متناسقة، وأدعية "السلام عليك يا مريم " تتردّد إلى ما لا نهاية.

و كان الأمر أشبه بطواف هائل بالمشاعل، أو باستعراض جبّار، حلّت فيه جوقات الأطفال المريميّة، محلّ حلبات الرقص. وكان اندفاع المؤمنين في تعاظم مطّرد، والجميع ينشدون. إلاّ أنّ ليراك اجتاز الجمهور المحتشد، وحلقات التطواف، فالتجأ إلى ضفاف مجرى السيل، في منأى عن ترداد التراتيل الملحاحة، وعن إسراف الأنوار المتعدّدة الألوان، المفرط.

و في أثناء مروره عبر حشود الحجّاج المتحمّسين والمتورّعين، لم يخطر له أن يبتسم ساخراً من سذاجتهم، وآمالهم الخياليّة، فقد انقلبت، مؤقّتاً، جميع مبادئه وبات اللامنطقيّ حقيقة واقعيّة، وغدا المحتضرون يبرأون في غضون ساعات معدودات.

و إذن، فلتلك الطقوس قدرة وجدوى، وأيّ درس في التواضع ! في ذلك النهار كان ليراك قد ظفر بأروع اكتشافاته. أوَ ليس مذهلاً أن يرى مريضاً يتعافى، بعد أن تأكّد، هو، في أعقاب دراسة منهجيّة لحالته، أن لا شفاء له ؟

لقد عاين، فيما مضى، العديد من حالات التهاب الصفاق السلّيّ، حتّى العصبيّة منها، بحيث كان واثقاً أنّه لم يُخطئ التشخيص، ولو أنّ ماري فيران كانت، من قبل، مريضته، لكان قد فتح بطنها، عوضاً عن أن يأتي بها إلى لورد. كان قد أعلن أنّها تحتضر، وها هو، في هذه الساعة الحاضرة، عاجز عن أيّ تفسير للحدث الذي لا يُصدّق الماثل أمام ناظريه.

فإمّا أن يكون قد أخطأ في التشخيص خطأً فادحاً، أو إنّ في الأمر أُعجوبة. إنّه مهما حاول إقناع ذاته بألاّ يكون سوى آلة تسجيل صادقة، وأن ليس من شأنه تفسير الوقائع، إلاّ أنّ فكره لم يعُدْ له مطيعاً، بل راح يتوثّب خارج الحدود الضيّقة التي أراد حبسه فيها، ويضطرب فضولاً لمعرفة هذا الشيء الرائع، الفائق الطبيعة، العذب، الذي يدعوه المؤمنون أُعجوبة.

بالمعنى الفظّ للكلمة، كانت ماري فيران " ناجية بأعجوبة ". إنّ كون فتاة تحتضر عند الظهر، قد تعافت في السابعة مساء لأمرٌ غير طبيعيّ، يبرّر حماس الجمهور.

و لكن في قرارة نفسه، ما الذي كان عليه أن يؤمن به ؟ في اضطرابه كان متردّداً بين فرضين: أو أن يكون قد وقع في خطأ تشخيص جسيم، ورأى في أعراضٍ عصبيّة إصابة عضويّة، أو أن يكون ما شخّصه هو، حقّاً، التهاب صفاق سلّيّ، وقد شفي فعلاً. أو أن يكون

قد ارتكب خطأ شنيعاً، أو أن تكون أعجوبة قد انفجرت أمام ناظريه، بل إنّ فكره كان يسرح إلى ما أبعد من ذلك: ما هو سبب الاعجوبة ؟.

كان ليراك قد تعدّى الحاجز، وبات إلى جوار مجرى السيل وحيداً، وشاهد، إزاء المغارة، آ. ب. الذي جاء فجلس معه على حافّة الرصيف.

و راحا يتأمّلان طويلاً، وفي صمت، المغارة التي كانت تتوهّج في الظلمة، وترسل إليهم ومضات حمراء منبعثة من ألُوف الشموع، وكانت تتراجع، من الطواف المشرف على نهايته، أصداء " السلام، السلام "، فيما السيل يدفق مياهه الهادرة على الصخور.

و كانت نسوة تصلّين صامتات، جالسات أو جاثيات، وإلى جانب حاجز المغارة، برزت، باللون الأسود، قامة الآنسة أو. راكعة على البلاط، مستغرقة في صلاة طويلة. وشيئاً فشيئاً اختفى الحجّاج، فبقي ليراك وصديقه، وحيدين، أمام المغارة المقفرة، وكانا، كلاهما، في هدأة الليل، يلزمان الصمت. كان آ. ب. منهكاً، ولكن صامداً صموداً بطوليّاً، يجيل فكره في أمر زوجته الشابّة، والابن الذي سيولد، وبالأعجوبة الرائعة التي أجراها اللّه. أمّا ليراك، فقد شخص ببصره، في حرارة، نحو تمثال العذراء، والعكاكيز المضاءة بنور الشموع، التي صبغ دخانها الذي لا ينقطع، الصخر، بالسواد، وفي الأسفل، في الظلّ، الصنابير النحاسيّة التي يتدفّق منها الماء العجائبيّ. فبالإضافة إلى توثّبات الجماهير الروحيّة، والتراتيل، ورائحة البخور، وارتعاش جميع تلك الإرادات المشدودة، كان الماء الذي يظهر هنا بكامل عريه، هو أداة الشفاء، وهذا هو ما كان لا يزال مستغلقاً على إدراكه.

و سأله آ. ب. في رفق:

– هل اقتنعت الآن، أيّها الفيلسوف الملحد ؟.

– بمَ أُجيب ؟ إنّ الإيمان عمل على جانب كبير من التعقيد ... ما زلت غير ملمّ بما رأينا. إنّني أراقب أحداثاً، ولا أنطلق منها إلى الاسباب. فتاة مصابة بعلّة خطيرة، مات أبواها وإخوتها مصدروين، وبدت عليها، هي نفسها، منذ سنّ الحادية عشرة، أعراض نفث الدم، ثمّ ذات الجنب، ثمّ بزل منها السائل، كما بدت عليها أمارات سلّ رئويّ، وأخيراً دلالات واضحة عن التهاب صفاق سلّيّ، هذه الفتاة، إذن، برئت في غضون لحظات، تحت أنظاري. إنّه أمر رائع، إنّه أُعجوبة.

– " ولكن الأُعجوبة واقع يفوق الطبيعة، وخرق لقوانينها يحقّقه اللّه، وهذا هو الواقع الذي تفجّر بين أناملك. "

– " إنّه فرض يبدو لك مقبولاً، ويبدو لي فظيعاً، ولكن لا يحقّ لي رفضه، مبدئيّاً، فمن وجهة نظر علميّة، نحن لا نعلم شيئاً عن الأسباب الأولى، وكما كان يقول كلود برنارد، لا

شأن لنا أن نبحث عنها، ولكنّ الخطأ يظلّ أبداً ممكناً، فربّما كانت هذه الفتاة مبتلاة بالتهاب صفاق عصبيّ، وخدعت الأَطبّاء والجرّاحين، وقد زالت علّتها، آنيّاً، بفعل إيحاء ذاتيّ.

– ولكن كان لديك من اليقين أَنّ علّتها عضويّة، بحيث أكّدتَ لي أَنّها لو برئت لترهّبتَ.

– آسف أَنّني قد نطقت بعبارة طائشة، وإِنّما ذلك يدلّ فقط على سلامة نيّتي، ولا يدلّ مطلقاً على عصمتي من الخطأ.

– وهل قرأت كتب لاسير، وكتب زولا نفسه ؟

– أَجل، كنت قد قرأت زولا، ووفقاً للحالات التي تكلّم عنها، مثل حالة ايليزروكيه، من بين حالات أُخرى، خيّل إِليّ أَنّ احداثاً غريبة تجري في لورد، مثل شفاء إِصابات سرطانيّة. أَمّا الحدث الذي شهدناه منذ فترة وجيزة، فهو يوفّر دليلاً من نوع آخر، فتلك الفتاة، من جرّاء إِصابتها العضويّة، كان من شأنها أَن تكون قد قضت نحبها، منذ قليل، وإِنّ شفاءها مذهل. وكان لا بدّ لي من هذه المراقبة المباشرة، فنحن ميّالون، رغم كلّ شيء، إِلى تصديق الخِدَع.

" إِنّ ما يجدر، على الأَقلّ، الجهر به، هو أَنّ المرضى يبرأون في لورد، على نحوٍ مدهش. إِنّ زملائي يلزمون الصمت في عناد، وفي لا مبالاة فظيعة، ويتحتّم أَن تقدم إِلى هنا لجان كفيلة بإِلقاء الضوء على الواقع .

إِنّ هذه الأَحداث المفتقرة إِلى تفسير لمقلقة ورهيبة، فإِمّا أَلاّ يكون وجود ليقين الفحص السريريّ، وبالتالي فأنا عاجز عن درس حال مريض، أو أَن يكون أَمامي حدث جديد، مذهل حقّاً، يتحتّم تبصّره، بأَدقّ تفاصليه.

إِذ إِنّه يتمّ الحصول، في لورد، على نتائج تفوق، بما لا يقاس، نتائج أَيّة معالجة أُخرى، وإِنّه، في سبيل شفاء مريض، من أَجل تلطيف الآلام، كل الوسائل جيّدة، إِن هي كانت مجدية، والنتائج وحدها هي التي ينبغي أَن تؤخذ في الحسبان. وأَنا قد راقبت حدثاً غير طبيعيّ يتميّز بقيمة عمليّة كبرى، إِذ أَنّه جعل ممّن كانت عمود مستشفى، فتاة تتمتّع بالعافية، وقادرة على أَن تحيا حياتها. ينبغي، إِذن، التحقّق من الأَحداث، وعلى الأَخصّ، تقصّيها تقصّياً وجدانيّاً، عوض ازدرائها. هذه، فيما أَرى، النتائج الوحيدة التي يمكن استخلاصها من أعجوبتنا.

– كلامك هذا ينطوي، ولا شكّ، على درس، ولكن ما قولك في السبب ؟

– إِنّ ما قلته، فعلاً، لا يلمّ بكلّ شيء، فمن المستحيل أَن تسبّب أَحداث طبيعيّة شفاء المرضى على هذا النحو، ومثل هذ الأشفية، لا تجري في مكان آخر، والإِيحاء الذاتيّ لا يفسّر كلّ شيء.

و هناك مرضى شفوا خارج برك الاستحمام، ومن غير حاجة إلى ماء لورد، مثل بيير دي رودير، الذي برئ من غير ماء، بمجرّد دعائه للعذراء القدّيسة. إنّني أرى أنّ العذراء هي التي تفعل مباشرة، وفق ظاهرة تفوق الطبيعة. ومن أجل تكوين رأي قاطع، ينبغي تقصّي جيمع الأحداث، والتأكّد من صلاحيّتها، وتصويرها، على غير ارتياب في سلامة نوايا بواساري وأترابه، بل في تريّب من إمكان وقوعهم في الخطأ، ويجب تنظيم لقاءات أطبّاء يمكن بها الخروج إلى نتائج.

أمّا أنا فلست أدري، ولكنّني آبى فكرة أن يكون للماء الطبيعيّ أيّ مفعول..

و ردّ آ. ب ضاحكاً:

– ومع ذلك، فهذا لا يعفيك من واجب ارتداء الثوب الرهبانيّ. إلى اللقاء.

– لو أنّني كنت في دير لقذف بي الرهبان خارجاً، بسبب تفكيري الملتوي.

و كان الليل قد تقدّم، وربّما انتصف.

و كان القمر يصعد، وئيداً، من خلف التلّة، في سماء رائعة، فتبدو الأشجار وظلالها متمادية الطول ...

و ظلّ ليراك وحيداً في قلب الليل الشفّاف، ولم يعد سوى رجل هائم في الليل، وقد حاصرت ذهنه هواجس النقد العلميّ التي كان قد حاول إقصاءها عنه .. ما السبيل إلى تفسير أحداث لورد ؟ ... من جديد طالعه مسلسل أحداث النهار وهلوساته.

لقد كان، بادئ الأمر، قد تصلّب، مقاوماً الانطباع العنيف الملحاح إلى أقصى حدّ، الذي أفرزته المشاهد الجارية أمامه، وقد رفض، بكلّ طاقة إرادته، ليس فقط كلّ استنتاج، بل كلّ فكرة كان من شأنها أن تحيد به عن البرنامج المرسوم: المراقبة والتسجيل، على غرار آلة، من غير بغض ولا حبّ.

لم يكن يروق له أن يجد نفسه مُقحَماً في قصّة أُعجوبة. كان قد قدم لكي يرى، وقد رأى، وعلى نحو ما يحدث إبّان تجربة في مختبر، لم يكن قادراً على مسخ نتيجة ملاحظاته. أهي وقائع علميّة جديدة ؟ أم هي وقائع تمُتّ إلى الصوفيّة، وما فوق الطبيعة ؟ تلك الأسئلة كانت ترتدي خطورة بالغة، فالأمر لا يتعلّق بقبول نظريّة هندسيّة، بل بقضايا كفيلة بتغيير اتّجاه حياة.

كان ذلك هو رأي زولا، ورأي جميع الذين استطاعوا الإفلات من ذلك الوضع الفكريّ الذي غالباً ما يخلّفه لدى الأطبّاء الافتقار إلى ثقافة عامّة، فدروسهم الطبّـيّة قد أتاحت لهم إلماماً سطحيّاً بكثير من القضايا العلميّة، بيد أنّ معظمهم لم يجروا، يوماً، أبحاثاً علميّة حقيقيّة، بل لا يملكون أدنى فكرة عن البحث التجريبيّ، ومع ذلك يظنّون أنفسهم علماء. إنّ افتقار الكثيرين منهم إلى منهج أكيد، ومستواهم الذهنيّ الواهي يجعلانهم عاجزين عن أيّ عمل

نقديّ، ذي بال. إنّ معظمهم ما زالوا يتخيّلون أنّ لورد لا تنطوي إلاّ على خداع، ولا يتجاسرون على بحث المسألة، أو الأخذ بنصيحة زولا، وأن يشخصوا ،جماعيّاً، صوب هذا المكان حيث تحدث، على نحوٍ ثابت، أحداثٌ ذات مغزى علميّ رفيع، وأمور لم تشاهد، قطّ، من قبل، ووقائع كلّيّة الجدّة، بوسعها أن تضيء، بنورٍ خاصّ، علم الأمراض العصبيّة، ودور الجهاز العصبيّ، اللذين ما زال يرين عليهما الكثير من الجهل.

بل قد تبلغ صغارة الأطبّاء، أنّ من أمّ منهم لورد لا يجرؤ على الاعتراف بذلك. أولَم يلحظ ليراك، في سجلاّت لورد، أسماء الكثيرين من زملائه وأصدقائه، الذين حدّثهم عن هذه القضايا، فتظاهروا بجهل كلّ شيء عنها، وكأنّهم لم يقدموا يوماً إلى لورد، خشية أن يُتّهموا بالتديّن والحماقة ؟

أمّا ليراك، فلئن كان في حرج من جرّاء انغماسه في هذه القصّة، إلاّ أنّ كبرياءه كانت تدفعه إلى المضيّ حتّى نهاية الشوط، مهما غلا الثمن.

و لكن إلى أين سيفضي به المشوار ؟ نوبةً أُخرى، قامت لديه حاجة ملحّة لمعرفة سبب هذه الظواهر المدهشة.

إنّ الظواهر الطبيعيّة، وقوانين الحياة، تكاد تكون غارقة في جهل مطبق. إنّنا لا نعرف منها على نحوٍ واثق، سوى عدد ضئيل من التفاصيل التي تبرز كنور ساطع، وسط محيط مدلهمّ.

ربّما استقرّت، تحت تأثير بعض الإرادات المشدودة، قدرة تنبعث فتحدث آثاراً علاجيّة مدهشة، وقد بدا، فيما مضى، أنّ ظواهر التخاطر عن بعد، ذات تأثير خارق. الإنسان البدائيّ، كان، لدى سماعه هزيم الرعد، يعبد قدرة اللّه، ويخشى غضبه. كلّ هذه الظواهر المغرقة في الغموض، ألا تجد لها تفسيراً في قوانين سرّيّة، لا نملك بعد، عنها أدنى فكرة ؟

ربّما، ولكن ما أقسى العجز عن المعرفة ! ثمّ، ولو فرضنا أنّ دماغاً ذكيّاً قد تمكّن من الإجابة، فلماذا نشاهد، أيضاً، من يُشفون بعيداً عن تلك التظاهرات الكبرى، حيث التوثّب الروحيّ يغدو معدياً ؟ في هدأة غرفة، أو إبّان حجّ فرديّ منعزل، كما هو حال بيير دي رودير، أو ج. د. او ماري فيران، تلك الفتاة المسجّاة على محفّة شبه وحيدة، أمام مغارة تلتهب فيها الشموع ؟.

و بالتالي يمكن إدراك دافع هروع الجموع إلى لورد، حيث المؤمنون يلتفتون صوب كائن تكتنفه الأسرار، كفيل بالإجابة مباشرة على تطلّعاتهم وصلواتهم.

كان ليراك هائماً في هذه الأحلام، وهو يتنزّه على الرصيف الفسيح، الذي يقوم على أطرافه حاجز، والذي يفضي إلى مدخل الكاتدرائيّة.

و كان ينبعث من البرّيّة الساجية، تحت القمر، هدوء وسلام لا متناهيان، وفوق الوادي، كان يسبح ضباب رقيق أَبيض، فيما كانت تمتدّ التلال الزرقاء، في خطوط صافية رائعة، تحت السماء.

و كان ليراك يحدّث نفسه:

" لا شيء يُثبت، في الواقع، أَنّ اللّه غير موجود، وأَنّ العذراء ليست سوى نتاج خيالنا. يبدو لي من الصعب إِقامة الدليل على وجود اللّه، ولكن يستحيل، أَيضاً، إِنكاره.

كيف تمكّن بعض المفكّرين، مثل باستور، من الجمع بين الإِيمان العلميّ، والإِيمان الدينيّ ؟ يبدو أَنّ لكلٍّ من هذه القضايا منهجها الخاصّ، فيما يحاول المرء أَن ينقل إِلى عالم ما فوق الطبيعة عاداته، ومعتقداته العلميّة، فلا يعود يبصر شيئاً.

و من حرص على التفكير السليم، توجَّب عليه أَلاّ يحيد عن مراقبة الظواهر، والعلاقة بينها.

أَمّا في البحث عن الأَسباب، فلا يوجد أَيّ يقين، ولا أَيّة وسيلة، للتأكّد من عدم وقوع في الخطأ، وبالتالي فقد يقبل المرء ما يشاء.

كنت في البدء، كاثوليكيّاً مخلصاً، ثمّ انقلبت رواقيّاً، ثم هويت في الريبة المطلقة والانفعاليّة.

و لم أَكسب من ذلك سوى المزيد من التعاسة. وحده الإِيمان الكاثوليكيّ، الذي، للأَسف، لم أَفهمه، هو الذي سكب فيّ شيئاً من الرضى.

أَنا وحيد في الليل. النظريّات الفكريّة الصرف، لا وجود لها، وما قيمة النظريّات، حيال الحياة والموت ؟ لا حاجة بنا، من أَجل حياة حقيقيّة، إِلى علم، بل حاجتنا إِلى روح وإِيمان ".

و كان ليراك يسير بخطى حثيثة على الرصيف، حيث كان يتناهى، بين حين وآخر، صوت الأُرغن الكبير. ورنّت البلاطات تحت وطء أَحذية الحارس المحدّدة، وهو خارج من الكنيسة. وكانت أَصوات كثيرة تتعالى داخل الكاتدرائيّة، التي احتلّ صحنها، وملأها حتّى الأَبواب، فريقٌ من الباسكيّين.

و توقّف ليراك عند العتبة. كان لا بدّ له من استخلاص قرار. بلا مراء، كانت أُعجوبة قد حدثت، فالشفاء كان أُعجوبة، بل أُعجوبة كبيرة. ما طبيعتها ؟ سنرى، فيما بعد، حدَّث نفسه. هي قبل كلّ شيء شفاء، هذا ما كان يحقّ له تأكيده، ولكن ربّما، في قرارة نفسه، لم يكن بوسعه أَن يقف عند هذا الحدّ ...

و تسلّق الدرج. من خلال الأَنوار والأَشعّة الباهرة، كان يتصاعد نشيد الأُرغن، وأَلف صوت رنّان، وجلس إِلى جانب قرويّ عجوز، على كرسيّ، ودفن رأسه بين راحتيه، وظلّ جامداً، فترة طويلة، تهدهده تراتيل الليل، فيما كانت تتصاعد، من أَعماق نفسه، هذه الصلاة:

" أَيّتها العذراء الرقيقة، منجدة البؤساء الذين يدعونك في تواضع، إِحفظيني. أَنا أومن بك. لقد شئتِ أَن تردّي على شكّي بأعجوبة باهرة، وأَنا لا أَعرف كيف أَراها، وما زلت فيها مرتاباً، إِلاّ أَنّ رغبتي الكبرى، والهدف الأَسمى لكلّ تطلّعاتي، أَن أومن إِيماناً عنيفاً، أَعمى، لا يشوبه جدال ولا نقد.

إِنّ اسمك أعذب من شمس الصباح، فخذي الخاطئ القلق، ذا القلب المضطرب والجبين المغضّن، الذي ينهك نفسه في نشدان الأَوهام. تحت نصائح كبريائي الفكريّة العميقة، القاسية، يرقد حلم، ما برح للأَسف، مكتوماً، هو أَكثر أَحلامي إِغراء، حلم الإِيمان بك، وحبّك على غرار الرهبان البيض النفوس ".

و بتؤدة، في الليل الساجي، هبط ليراك، عبر الشوارع الطويلة، واجتاز ساحة المسبحة الورديّة، التي كستها أَشعّة القمر الحليبيّة بالبياض.

كانت الصلاة تشغله، فلم يشعر بنداوة الليل العذبة، إِلاّ شعوراً مُبهَماً. وعندما صار إِلى غرفته، خُيّل إِليه أَنّ أسابيع عديدة قد انقضت منذ بدء رحلته، وأَخرج، من حقيبة السفر، دفتره الأَخضر الضخم، وراح يسجّل ملاحظات نهاية النهار، وكانت الساعة الثالثة صباحاً، وفي المشرق وميض أَبيض ينير الليل العميق.

مزيد من النداوة تسرّب من النافذة المُشرَعة، وبدا له أَنّ سكون الأَشياء قد انحدر إِلى نفسه، في عذوبة وهدوء، وتلاشت هموم الحياة اليوميّة، والافتراضات والنظريّات، والهواجس الفكريّة.

و راوده شعور بأَنّه، تحت يد العذراء، كان يمسك باليقين وأَنّه يحسّ بعذوبته الرائعة التي تبعث السلام. وكان هذا الإِحساس من العمق بحيث أَزاح، في غير قلق، أَيّ احتمال لعودة نذر الشكّ .

و في سنى الصبح الذي يندّ عن الوصف، استسلم ليراك للنوم.

أشفيـة لـورد

" أملنا الأَبديّ يجب أَن يتمثّل في أَن نفسّر، يوماً، ما لا تفسير له.

هل يمكن إِثبات الأُعجوبة بالبرهان ؟ إِنّما يجب الإِيمان بها، ولا حاجة إِلى الفهم عندما يتدخّل اللّه.

.... ليس من مهمّة أَكثر بطولة من إِثبات أَصغر حقيقة.

.... إِنّ الذين يقدمون إِلى هنا كي يناقشوا، يثيرون فيّ الضحك، عندما يتكلّمون باسم شرائع العلم المطلقة ".

إميل زولا: لورد

إِن كانت رحلة لورد (تمّوز 1903) تمثّل تاريخاً في حياة أَلكسي كاريل الروحيّة، وتطوّره الفكريّ، فالأَحداث التي قُيِّض له أَن يشهدها ويتحقّق منها، فرضت نفسها، فيما بعد، على أَبحاثه كعالِم، إِذ كان حريصاً على أَن يطبّق العلم مناهجه التحليليّة على حالات الشفاء الموصوفة باللاطبيعيّة، والتي هي قائمة ثابتة، وذلك في منأى عن أَيّ تأويل فلسفيّ، أَو دينيّ، وقد كان هو نفسه، في الملفّ الذي وضعه عن لورد، قد جمع ملاحظات كثيرة، ذات طابع علميّ.

و اضطُرّ الدكتور كاريل إِلى أَن يدافع، في الصحافة، عن آرائه التي يختصرها في المذكّرة التالية:

" كلّ سنة يؤمّ لورد أُلوف الحجّاج والمرضى، وفي أَعقاب هذه الرحلات، تنشر الصحافة الكاثوليكيّة أَحداثاً غير طبيعيّة تصفها بالخوارق.

و قد رفض الأَطبّاء، حقبةً طويلة، العكوف على دراسة حالات الشفاء هذه دراسة جدّيّة، مع أَنّ إِنكار حقيقة واقع ما، على غير دراسة مسبقة، يمثّل خطأً علميّاً فادحاً .

ربّما كانت لورد تنطوي على وقائع أَكيدة، ذات مظهر من الغرابة بحيث يصعب حملها على محمل الجدّ، فضلاً عن أَنّ قضايا الدين والأَحزاب كانت تسهم، من جهتها، في التأثير على الأَفكار، وبالتالي لم يجرِ، حتّى أيّامنا، أَيّ نقدٍ جدّيّ، كان، حقّاً، لا غنى عنه. وعوضاً عن ذلك، هامت الأَذهان في اعتبارات حول مصادر الأَحداث.

إِنّ تاريخ لورد بأجمعه، يمكن اختزاله في كلمتين: عام 1858، تراءى لراعية، شخصٌ تسميّه الديانة الكاثوليكيّة، مريم العذراء.

في أَعقاب هذه الرؤيا، شُفِي مرضى اقتيدوا إِلى مغارة مسّابييل، وراح الإِقبال على المكان يتفاقم باطّراد، بحيث باتت اليوم قطارات كاملة تأتيه بمرضاها.

غرضنا هو تأمّل الأَحداث، يحيث نستطيع التحقّق منها علميّاً، في منأى عن أَيّ تأويل فائق الطبيعة.

ففي نظر مفكّرين كُثُر، لا يمكن أَن يحدث شيء بفعل القوى الطبيعيّة، خلا الوقائع التي تمّ التحقّق منها، منذ زمن طويل، ووصفتها الكتب، وانتظمت، على نحومصطنع، في نظريّات، وإِذا ما برزت ظاهرة، متمرّدة، بحيثُ تأبى الانتظام داخل أطر العلم الرسميّ الجامدة، قابلها الرفض والسخريّة.

إِنّ عالِم الرياضيّات لابلاس، عندما سمع تقرير " بيكتيه " عن النيازك الجويّة صاح محتجّاً: كفانا من مثل هذه الأَساطير. وكانت النيازك هي الحداثة في تلك الحقبة، بيد أَنّها، قبل أَن تكتسب حقّ المواطنة، أُنكر وجودُها.

لقد شهدت كلّ حقبة ظهور وقائع تبدو للعلماء غير طبيعيّة، وخطرة، لأَنّها تحطّم الصِّيَغ الرسميّة، حيث يروق للفكر البشريّ أَن يقبع سجيناً. أَدعياء التفكير العلميّ يُنكرونها، أَمّا الآخرون فيعتبرونها فائقة الطبيعة، فنحن نعلن فائق الطبيعة الواقع الذي نجهل له سبباً.

طالما عجز الناس عن تفسير الكسوفات، كانت هذه تمثّل خرقاً للنظام الفلكيّ اليوميّ، وقد تلاشى طابع الحدَث الفائق الطبيعة، مع تلاشي جهل السبب.

حيال الأَحداث غير الطبيعيّة، يتحتّم علينا إِجراء مراقبة دقيقة، غير عابئين بالبحث عن السبب الأَوّل، ودون اهتمام، خصوصاً، بالمكان الذي يجب أَن يحتلّه الحدث في إِطار العلم الحاليّ، وعلى حدّ قول كلود برنارد: يجب محاولة تحطيم عوائق الأَنظمة الفلسفيّة والعلميّة، على حدّ ما تحطّم قيود استعباد فكريّ.

لا مراء أَنّه لا يسوغ التشكيك بوقائع علميّة مثبتة حقّاً. ولكن، إِلى جانب بعض النقاط المضيئة، ما برحت القوانين الطبيعيّة تحجبها عن أَبصارنا ظلماتٌ من الكثافة بحيث تُضيِّق، إِلى أَبعد حدّ، حقل معرفتنا، إِن نحن حصرناه في القوانين المعروفة حاليّاً، ليس إِلاّ.

لا ريب أَنّ هناك قوانين أُخرى كثيرة، والتقدّم العمليّ يكمن في البحث عن الجديد، في تحليل الظواهر غير الطبيعيّة، في إِبراز خواصّها، في بيان نواحي اختلافها عن الوقائع المعروفة، في سبيل الوقوف على قوانين جديدة.

على العلم أَن يتحفّظ، أَبداً، من الخداع وسرعة التصديق، ولكن من واجبه ألاّ ينكر الوقائع فقط لأَنّها تبدو غير طبيعيّة، ولأَنّه لا يقوى على تفسيرها.

في عالم الطبّ، كثيرون ينكرون الوقائع، التي لم تتهيّأ لهم فرصة مراقبتها. وهذا موقف فكريّ خاطئ.

إِنّ من يدرس هذه القضايا، يفتقر إِلى عناصر اليقين التي يوفّرها عمل المختبر بأدوات ذات حساسيّة منتظمة، ما عليه سوى قراءة إِشاراتها على موادّ هي دائماً بمنال يده.

عليه، أيضاً، أن يتحرّر من كلّ حكم مسبق، وألاّ يصدّق، على غير تدقيق، وألاّ ينخدع بشهادات مغرضة كاذبة، كما عليه أن يحذر تعصّب أُناس صادقين، مثلما يتوجّب عليه مواجهة الآراء المسبقة الإقرار، الدينيّة منها والمناهضة للدين على السواء، ويصمد في وجه السخرية وعدم الاستعداد للتفهّم من قبل عقليّات متعالية، بحيث يواصل، ببساطة، ورغم جميع العقبات، السعي شطر الهدف الذي رمى إلى تحقيقه.

إنّ أيّ موضوع بحث لا يسوغ أن ينبذ، لأنّه صعب الاكتشاف أو لأنّ العلماء المعاصرين أهملوه أو ازدروه.

إنّ المواضيع التي سنعكف على دراستها، ينكرها البعض فيما يعتبرها الآخرون فائقة الطبيعة. قبل الإنكار، يتوجّب التمحيص: هذا هو دور العلم.

إنّنا نودّ فقط أن نبــيّن أنّ الظواهر الفائقة الطبيعة، إنّما هي في الغالب وقائع طبيعيّة، نجهل لها سبباً.

فإذا ما وجدنا السبب، علميّاً، وإذا ما أثبتنا الواقع، فكلّ واحد حرّ بالتأويل كيفما يشاء.

و لا ينبغي أن ينظر الكاثوليك إلى التحليل على أنّه عمل تدنيس أو تجريح. إنّه بحث علميّ فحسب، والعلم لا وطن له، ولا دين ".

******

الصّـــــــــــــلاة

تمهيد :

في كانون الأَوّل 1940، كان كاتب هذه السطور (أَلِكسي كاريل) قد عقد، بالإِنجليزيّة، للمجلّة الأَميركيّة الكبرى " ريدرزديجست " مقالاً حول قدرات الصلاة، ونُشر هذا المقال في مطلع عام 1941 بعد أَن أوجزه وحوّره أَحد المحرّرين، ثمّ تُرجم المقال إِلى الفرنسيّة، على الأَرجح في سويسرا، وظهر في " جريدة جنيف "، ثمّ نشرته مجلّة " الأسبوع الدينيّ " في فرنسا، وحينئذٍ اطّلع المؤلّف على هذه الترجمة، فلم يرضَ بها، وعزم في مطلع عام 1944 على كتابة محاولة أُخرى عن الصلاة .

ليس المؤلّف لاهوتيّاً، ولا هو فيلسوف، وهو يستخدم أَلفاظاً شائعة، ويطويها على المعاني التي تفهمها العامّة، وأَحياناً على معانٍ علميّة، ومن ثمّ فهو يرجو اللاهوتيّين مقابلته بالتسامح الذي من شأنه أَن يقابلهم هو به، لو أَنّهم بحثوا مواضيع تمتّ إِلى علم وظائف الأَعضاء.

إِنّ هذا البحث عن الصلاة خلاصة موجزة، إِلى أَبعد حدّ، لعدد لا يُحصى من الملاحظات التي جمعها سحابة ممارسة طويلة، وكان، خلالها، على صلة بأَشدّ فئات الناس تبايناً، غربيّين وشرقيّين، سُقَماء وأَصحّاء، كهنة كاثوليكيّين، رهبان وراهبات ينتمون إِلى شتّى الأَنظمة، قُسس بروتستانت يحملون شتّى التسميات، حاخامين، وأَطبّاء وممرّضات، رجال ونساء يمارسون مختلف المهن، وينتسبون إِلى مختلف الطبقات الاجتماعيّة.

فضلاً عن أَنّ خبرته كجرّاح، وطبيب، وعالم فيزيولوجيّ ،و الأَبحاث المخبريّة التي عكف عليها سحابة سنوات، حول تجدّد الأَنسجة، والتئام الجراح، كلّ هذه أَتاحت له أَن يقيِّم، حقّ قدرها، بعض قِيَم الصلاة العلاجيّة. إِنّه يتكلّم فقط عن أُمور تحقّق منها بنفسه، أو استقاها من أُناس جديرين بإِجراء تحقيقات أَمينة ودقيقة، وقد آثر أَن يكون كلامه ناقصاً أَحياناً، على أَن يورد أَحداثاً لم يتثبّت من صحّتها تثبّتاً كافياً، وقد حرص، قبل كلّ شيء، على أَن يظلّ واقفاً على أَرضيّة الواقع الصلبة.

للوهلة الأُولى قد تبدو محادثة المعاصرين عن الصلاة جهداً نافلاً، ولكن أَليس واجباً لازباً أَن نقف على جميع ضروب النشاط التي نحن لها مؤهّلون ؟ إِذ لا يسـعنا إِغفال أَيّ منها، من غير أَن نعرّض ذواتنا ونعرّض ذرّيّتنا إِلى خطر رهيب، فمن الجليّ أَنّ هزال الحسّ الروحيّ والحسّ الخلقيّ، ينطوي على مثل ما ينطوي عليه هزال الذهن، من وبال، وبالتالي فإِنّ هذه الأَسطر تخاطب الجميع، الملحدين والمؤمنين على السواء، إِذ أَنّ نجاح الحياة يفرض

على الجميع واجبات مماثلة، فهو يقتضي منّا التصرّف وفق ما يأمرنا به تكويننا الجسميّ والعقليّ، وبالتالي لا يحقّ لأحد جهل أَكثر حاجات طبيعتنا عمقاً ودقّة.

مقـــــــدّمة

يُخيّل إِلينا، نحن الغربيّين، أَنّ العقل يسمو على الحدْس كثيراً، فنؤثر، إِلى حدّ بعيد، الذكاء على الشعور، ومن ثمّ فإِنّ العلم ينتشر شعاعه، والدين تنطفئ جذوته. إِنّنا نسير في خطى ديكارت، ونتخلّى عن باسكال.

و لا عجب، والحالة هذه، أَن نحاول إِنماء الفكر فينا، في حين ننبذ، نبذاً شبه مطلق، أوجه نشاط الروح غير الفكريّة، مثل الحسّ الخلقيّ، وحسّ الجمال، وعلى نحوٍ خاصّ، الحسّ بالمقدّسات، مع أَنّ ضمور هذه النشاطات الأَساسيّة يجعل من الإِنسان الحديث مخلوقاً أَعمى البصيرة، فتحول به هذه العاهة عن أَن يكون، في المجتمع، عضواً بنّاء.

ينبغي عزو انهيار حضارتنا إِلى مستوى الفرد المنحطّ، إِذ قد تأكّد أَنّ العنصر الروحيّ ضرورة لازبة لنجاح الحياة، مثلما هما عنصرا الفكر والمادّة، وبالتالي فإِنّنا نؤنس حاجة ملحاحة إِلى أَن نبعث فينا النشاطات الروحيّة، التي تسبغ على الشخصيّة من القوّة أَكثر مما يوفّره العقل. وإِنّ أَكثر هذه النشاطات تعرّضاً للجهل، هي تلك التي تتعلّق بحسّ المقدّسات، أو الحسّ الدينيّ.

و حسّ المقدّسات يعبّر عن نفسه بالصلاة، ومن الجليّ أَنّ الصلاة، شأنها شأن الحسّ بالمقدّسات، ظاهرة روحيّة، والعالم الروحيّ لا يقع تحت منال تقنيتنا، ومن ثمّ فكيف السبيل للظفر بمعرفة الصلاة معرفة موضوعيّة ؟ ومن حسن الطالع أَنّ حقل العلم يمتدّ إِلى كلّ ما يمكن مراقبته، وبوسعه، بواسطة الفيزيولوجيا، أَن يطال مظاهر الروح.

و إِذن، فبمراقبتنا، مراقبة منهجيّة، الإِنسان الذي يصلّي، ندرك جوهر ظاهرة الصلاة، وأسلوبها ونتائجها.

ماهي الصلاة ؟

في جوهرها، تبدو الصلاة صُبُوَّ الروح نحو قاعدة العالم غير المادّيّة، وهي تتمثّل، عموماً، في أنَّة، أو في صرخة قلق، أو في استغاثة، ولكنّها قد تصبح، أَحياناً، تأمّلاً هادئاً في مبدأ جميع الأَشياء الجوهريّ السامي، ويمكن أَيضاً تحديدها على أَنّها ارتقاء بالنفس نحو اللّه، وبمثابة فعل حبّ وعبادة إِزاء من تنبع منه معجزة الحياة. ففي الواقع، الصلاة تعبير عن جهد الإِنسان للمشاركة مع كائن غير مرئي، هو خالق كلّ موجود، وهو الحكمة المطلقة، والقوّة والجمال، وأَبو كلٍّ منّا، ومخلِّصه.

و هي ليست مجرّد تلاوة صِيَغ موضوعة، بل إِنّ الصلاة الحقّة، هي حالة صوفيّة يندمج فيها الوجدان باللّه، ولا ترتدي هذه الحالة طابعاً فكريّاً. ولا غرابة، بالتالي، إِن هي ظلّت في منأى عن متناول الفلاسفة والعلماء، وعن إِدراكهم. وهي، على غرار حسّ الجمال والحبّ ، لا تقتضي أَيَّة معرفة بما تنطوي عليه كتب العلم، فالبسطاء يحسّون باللّه، في مثل البساطة التي يحسّون بها بدفء الشمس، وعبير الزهرة، إِلاّ أَنّ هذا اللّه الذي يضع نفسه في متناول من يعرف كيف يحبّ، يختبئ عمّن لا يعرف غير الفهم، ويعجز الفكر والكلام عن وصفه.

و من ثمّ، تجد الصلاة أَجمل تعبير لها في انطلاقة الحبّ، عبر ليل العقل الداجي.

كيف نصلّي ؟

كيف ينبغي أَن نصلّي ؟ لقد تلقّنّا أسلوب الصلاة من المتصوّفين المسيحيّين، منذ القدّيس بولس حتّى القدّيس بندكتس، ومن حشد الرسل المُغفَلين، الذين، سحابة عشرين قرناً تقريباً، لقّنوا الشعوب مبادئ الحياة الروحيّة.

إِله أفلاطون كان، في عظمته، عسير المنال ؛ وإِله ايبكتيت كان يختلط بروح الأَشياء ؛ ويهوه كان طاغية شرقيّاً يوحي بالرعب لا بالحبّ. وعلى النقيض منهم جميعاً، وضعت المسيحيّة اللّه في متناول الإِنسان، وأَعطته وجهاً، وجعلت منه أَباً لنا وأَخاً ومخلّصاً، فلم تعد، هناك حاجة، في سبيل بلوغ اللّه، إِلى طقوس معقّدة، وأضاحٍ دمويّة، بل باتت الصلاة سهلة، وغدا أسلوبها بسيطاً.

فالصلاة لا تقتضي سوى الجهد في الصُّبُوّ نحو اللّه، وعلى هذا الجهد أَن يكون عاطفيّاً لا عقليّاً.

فالتأمّل في عظمة اللّه، على سبيل المثال، ليس صلاة، ما لم يكن، في آنٍ واحد، تعبيراً عن حبٍّ وإِيمان. وعلى هذا النحو تنطلق الصلاة، وفق نهج " لاسال "، من اعتبارٍ فكريّ لتنقلب عاطفيّة في الحال، وسواء هي طالت أم قصرت، وتُليت بصوتٍ مرتفع، أو كانت داخليّة، يجب أَن تحاكي مخاطبة ابن لأَبيه.

في الصلاة، " يمثل الإِنسان على علاّته " على حدّ قول إِحدى راهبات المحبّة التي، طوال ثلاثين سنة، أحرقت حياتها في خدمة الفقراء.

بالإِجمال، يصلّي المرء، على نحو ما يحبّ، بكلّ كيانه.

أَمّا صيغة الصلاة، فهي تختلف من تطلُّعٍ خاطف نحو اللّه، إِلى التأمّل، ومن الأَلفاظ البسيطة تنطق بها قرويّة أمام لوحة الصليب، عند ملتقى طرق، حتّى أبّهة التراتيل الغريغوريّة، تحت قناطر كاتدرائيّة. وليست العلنيّة، والعظمة والروعة شروطاً ضروريّة لجدوى الصلاة، فقليلون هم الذين أجادوا الصلاة كما أجادها القدّيس " جان دي لاكروا " أو القدّيس " برنارد دي كليرفو ". ولكن لا حاجة بالصلاة إِلى البلاغة كي تُستجاب. وإِذا ما قيِّمت الصلاة بنتائجها، فإنّ أَكثر ألفاظ توسّلاتنا تواضعاً، تبدو مقبولة لدى سيّد جميع الكائنات، شأنها شأن أروع الأَناشيد، وبعض العبارات التي تتلى آليّاً هي ضرب من الصلاة، مثلما أَنّ شعلة شمعة قد تكون صلاة، وحسب تلك العبارات الجامدة، أو هذه الشعلة المادّيّة أن ترمز إِلى صبوّ الكائن البشريّ نحو اللّه.

و قد يكون العمل صلاة. فالقدّيس " لويس دي كونزاك " كان يقول أنّ الاضطلاع بالواجب هو بمثابة صلاة، ولا مراء أنّ الوسيلة المثلى للتقرّب من اللّه تكمن في تنفيذ مشيئته بحذافيرها: " أبانا، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، على الأرض كما في السماء ... " ومن الواضح أنّ تنفيذ مشيئة اللّه يتمثّل في الخضوع لنواميس الحياة، على نحو ما هي مطبوعة في أنسجتنا، ودمنا وفكرنا.

إنّ الصلوات التي تتصاعد، مثل غمامة كبيرة، من سطح الأرض، تتباين فيما بينها، تباين شخصيّات المصلّين، إلاّ أنّها وجوه مختلفة لموضوعين اثنين: الاستغاثة والحبّ.

لا غبار علينا إن نحن سألنا اللّه إزره للحصول على ما نفتقر إليه، ولكن من الحمق أن نسأله التكرّم علينا بتحقيق نزوة، أو بما يتوجّب على جهدنا أن يوفّره لنا.

إنّ السؤال الملحف اللجوج، العنيف، يفلح. لقد كان أعمى جالس على قارعة الطريق يجأر بتوسّلاته التي لا تنفكّ تشتدّ لجاجة، كلّما حاول الناس إسكاته، فقال له يسوع، وقد مرّ من هناك: " إيمانك خلّصك ".

عندما تبلغ الصلاة أسمى مراحلها، تتخلّى عن السؤال، ويقتصر الإنسان على التعبير عن حبّه لسيّد الأشياء كلّها، وشكره له عن آلائه، وتأهّبه لتنفيذ مشيئته مهما كانت، وحينئذٍ تصبح الصلاة تأمّلاً.

كان قرويّ عجوز يجلس وحيداً على المقعد الأخير في كنيسة خالية، فسئل: " ماذا تنتظر بعد ؟ " أجاب: " أنظر إليه، وينظر إليَّ ". ولئن كان الأسلوب يُقيَّم بنتائجه، فكلّ أسلوب صلاة حسن، إن هو وضع الإنسان على صلة باللّه.

******

أَين ومتى نصلّي ؟

يمكننا أَن نصلّي في كلّ مكان: في الشارع، في الطريق، في السيّارة، في عربة القطار، في المكتب، في المدرسة، في المعمل، ولكنّنا نصلّي، على نحوٍ أَفضل، في الحقول والجبال والغابات، أو في عزلة غرفة، هذا، فضلاً عن الصلوات الطقسيّة التي يُحتفل بها في الكنائس.

و لكن أَينما تمّت الصلاة، فاللّه لا يكلّم الإِنسان إِلاّ حين يستقرّ السكون في داخله. وهذا السكون الداخليّ فينا يتوقّف على وضعنا الجسديّ والفكريّ على السواء، وعلى المحيط الذي نحن فيه منغمسون. ومن العسير أَن يتحقّق سلام الجسم والروح، وسط فوضى المدينة الحديثة وصخبها، وما تفرضه من تشتّت. ومن ثمّ برزت الحاجة،اليوم، إِلى أَماكن صلاة، وإِلى الكنائس، على نحوٍ خاصّ، حيث يتسنّى لسكّان المدن العثور، ولو لفترة قصيرة، على الشروط المادّيّة والنفسيّة التي لا غنى عنها لتوفير السكون الداخليّ. ولن يكون من العسير ولا من المكلف، إِيجاد جزر سلام تؤمّن هذه الشروط، صغيرة، مشرعة الأَبواب، جميلة، وسط صخب المدينة.

في صمت هذه الموائل، يمسي في طاقة الناس، إِذ يرتقون إِلى اللّه بأفكارهم، أَن يوفّروا الراحة لأَعصابهم وأَجسادهم المكدودة، والاسترخاء لأَذهانهم المشدودة، والوضوح لبصيرتهم المشوّشة، وبالتالي أَن يتلقّوا القوّة على تحمّل الحياة القاسية التي تفرضها عليهم حضارتنا.

و حين تصبح الصلاة عادة، تغدو ذات تأثير على طباعنا. لذلك يجب أَن تكون الصلاة متواترة. لقد كان إِيبكتيت يقول: " فكّر في اللّه أَكثر مما تتنفّس ". إِنّه لمن الحمق أَن نصلّي في الصباح، ثمّ نتصرّف، سائر النهار، كالمتوحّشين، وتكفي خواطر خاطفة، أو أدعية داخليّة قصيرة، كي يبقى الإِنسان في حضور اللّه. وحينئذٍ تصبح الصلاة هي ملهمة السلوك بأجمعه.

و على هذا النحو تغدو الصلاة، أسلوب حياة.

تأثير الصلاة

الصلاة، إن هي تمّت في شروط ملائمة، تسفر دائماً عن نتيجة. لقد كتب رالف والدو إيمرسون: " ما صلّى إنسان يوماً، إلاّ وظفر من صلاته بعلم جديد ". بيد أنّ المحدثين يرون في الصلاة عادة بالية، وخرافة نافلة، وبقايا همجيّة. وفي الحقيقة، نحن نكاد نجهل كلّ شيء عن عواقب الصلاة.

ما هي أسباب جهلنا هذا ؟ أوّلها، أنّ الصلاة قد باتت نادرة، فحسّ المقدّسات أصبح في طور الزوال عند المتحضّرين، فضلاً عن أنّ الصلاة غالباً ما تكون عقيمة، لأنّ غالبيّة المصلّين أنانيّون، كاذبون، متكبّرون، وفرّيسيّون عاجزون عن الحبّ والإيمان، ثمّ إنّ نتائج الصلاة عندما تتحقّق، غالباً ما تخفى عنّا. فالجواب على توسّلاتنا وحبّنا، يكون، عادةً، بطيئاً، لا يصدم شعورنا، ولا يقرع سمعنا. وما أيسر على ضجيج العالم أن يخنق الصوت الخافت الذي يهمس هذا الجواب في داخلنا !

و نتائج الصلاة المادّيّة، هي، أيضاً، مغلَّفة بالغموض، وكثيراً ما تختلط بظواهر أُخرى، وبالتالي فقليلون هم، حتّى في صفوف الكهنة، من يتسنّى لهم مراقبتها على نحوٍ دقيق. أمّا الأطبّاء، فمن جرّاء لا مبالاتهم، غالباً ما يغفلون حالات تقع في متناول يدهم، فلا يمحّصونها.

هذا فضلاً عن أنّ المراقبين غالباً ما يتيهون، حين يكون الردّ مغايراً لما كان متوقّعاً ؛ فعلى سبيل المثال، قد يطلب امرؤ الشفاء من مرض عضويّ، فيظلّ عليلاً، ولكنّه يتعرّض إلى تحوّل نفسيّ عميق يستعصي على الفهم.

غير أنّ عادة الصلاة، التي أمست استثنائيّة لدى معظم الناس، ما برحت شائعة لدى الفئات التي ما زالت وفيّة لدين الأجداد، ومن الممكن، اليوم، دراسة تأثير الصلاة، بين ظهراني هذه الفئات. ومن بين نتائجها يتسنّى للطبيب، على نحوٍ خاصّ، أن يراقب النتائج المسمّاة بسيكوفيزيولوجيّة، وتلك التي تدعى علاجيّة.

****

النتائج البســـيكوفيزيولوجيّة

إنّ فعل الصلاة في النفس، وفي الجسد، يتوقّف على نوعــيّة الصلاة وكثافتها، وتواترها. ومن اليسير معرفة تواتر الصلاة، وإلى حدٍّ ما، كثافتها. أمّا نوعيّة الصلاة فتظلّ مجهولة، إذ لا وسيلة لدينا لقياس إيمان الآخرين وطاقاتهم على الحبّ، إلاّ أنّ أسلوب عيش المُصلّي، قد يلقي الضوء على نوعيّة الأدعية التي يوجّهها إلى اللّه، فحتّى عندما تكون فاترة أو مقتصرة على ترديدٍ آليّ لِصيَغ موضوعة، تمارس الصلاة على السلوك تأثيرها، فهي تدعم، في آنٍ معاً، الحسّ بالمقدّسات، والحسّ الخلقيّ. والأوساط التي تشيع فيها الصلاة تتميّز بنوع من الشعور بالواجب والمسؤوليّة الدائم التيقّظ، وبقدرٍ أدنى من الحسد والخبث، وبشيءٍ من الطيب حيال الآخرين، بل يبدو من الثابت أنّ الأخلاق والقيم الأدبيّة هي أسمى شاناً لدى من يُصلُّون، ولو على نحوٍ هزيل، ممّا هي عليه لدى من لا يصلّون، ولو تساووا جميعاً في النموّ الفكريّ.

أمّا عندما تغدو الصلاة عادةً، وتتّصف بالحرارة، فتأثيرها يمسي جليّاً واضحاً، وهي تحاكي، إلى حدٍّ ما، الغدد ذات الإفراز الداخليّ، كالغدّة الدرقيّة والغدّة الكظريّة، على سبيل المثال، وتتمثّل في تحوّل ذهنيّ ووظيفيّ يتحقّق تدريجيّاً، وكأنّه شعلة تتّقد في أعماق الوجدان، فيرى الإنسان نفسه كما هو، ويكتشف أنانيّته، وجشعه، وخطل أحكامه، وكبرياءه، ويروّض نفسه على أداء الواجب الخلقيّ، كما يحاول التمرّس بالتواضع الفكريّ، وعلى هذا النحو يشرع أمامه ملكوت النعمة ....

و شيئاً فشيئاً يتحقّق لديه ترسّخ السلام الداخليّ، وتناغم النشاطات العصبيّة والأخلاقيّة وتكوّن طاقة كبرى على مقاساة الفقر والنميمة والهموم، ويقوى على أن يتحمّل، في غير وَهَن، فقدان الأقرباء، والألم والسقم والموت، وبالتالي، يحقّ للطبيب أن يبتهج عندما يرى مريضه يصلّي، فالسكينة التي تتولّد عن الصلاة، دعم للعلاج منيع.

و لكن هذا لا يعني تشبيه الصلاة بالمورفين، فهي تحدث، في آنٍ معاً، السكينة، وتناغماً في النشاطات الفكريّة، وازدهاراً في الشخصيّة، وأحياناً تنتج البطولة. إنّها تطبع من يمارسونها بدمغة مميّزة: صفاء النظر، والوقار الهادئ، والفرح الساجي في الملامح، ورجولة في المسلك، وإذا ما دعت الضرورة، إقبال الجنديّ والشهيد على الموت ببساطة. كلّ هذه المواقف تعبّر عن كنزٍ كامن في أعماق الأعضاء والروح. وبفضل هذا التأثير يقوى حتّى الجهلاء، والمتخلّفون، والضعفاء، والمفتقرون إلى المواهب، على استخدامٍ أمثل لملكاتهم الفكريّة والخلقيّة.

يبدو أنّ الصلاة ترتقي بالبشر إلى أعلى من قامتهم العقليّة التي صاروا إليها بالوراثة والتربية، فاتّصالهم هذا باللّه يغمرهم بالسلام، والسلام يشعّ منهم فيحملونه حيثما حلّوا، ولكن، للأسف، عدد الأفراد الذين يعرفون كيف يصلّون، على نحوٍ مجدٍ، بات مغرقاً في الضآلة، في عالم اليوم.

آثار الصّلاة العلاجيّة

آثار الصلاة العلاجيّة، هي التي، عبر مختلف الحقب، قد لفتت، على نحوٍ خاصّ، انتباه الناس. واليوم أَيضاً، في الأَوساط التي تشيع فيها الصلاة، غالباً ما يتحدّثون عن أَشفية تحقّقت بفضل توسّلات إِلى اللّه وقدّيسيه.

عندما يتعلّق الأَمر بأسقام قابلة للشفاء التلقائيّ، أو بواسطة علاجات متداوَلة يمسي من الصعب تحديد عامل الشفاء الحقيقيّ. ولكن في جميع الحالات المستعصية على كلّ علاج، أو تلك التي فشلت فيها أنواع العلاج، يمكن التحقّق، على نحوٍ أكيد، من نتائج الصلاة.

و قد أسدى المكتب الطبّيّ في لورد خدمة جُلّى للعلم، بإِقامة الدليل على واقعيّة هذه الأَشفية.

فللصلاة، أَحياناً، مفعول المتفجّرات، إِذ قد برئ، على نحوٍ تلقائيّ تقريباً، مرضى مصابون بأَسقام مثل قراض في الوجه، أو السرطان، أو التهاب الكلى، أو القرحات أو السلّ الرئويّ والعظميّ والصفاقيّ، وتكاد تتمّ الظاهرة دائماً وفق نهج واحد: ألم شديد يعقبه الشعور بالشفاء، وفي غضون ثوانٍ، أو على الأَكثر، في غضون ساعات، تتلاشى الأَعراض، وتصلح الإِصابات الجسديّة، وتتميّز الأُعجوبة بتسرّع فائق يطرأ على مسيرة الشفاء الطبيعيّة، تسرّع لم يشاهَد له، حتّى الآن، مثيل، من خلال تجارب الجرّاحين والعلماء الفيزيولوجيّين.

و ليس محتّماً أَن يصلّي المريض نفسه، كي تتحقّق مثل هذه الظواهر، فقد برئ في لورد أَطفال ما زالوا عاجزين عن الكلام، كما شفي ملحدون، ولكن، إِلى جانبهم، كان هناك من يصلّي. والصلاة التي يصعّدها آخر هي، دائماً، أَشدّ خصباً من تلك التي يصعّدها الإِنسان عن نفسه، ويبدو أَنّ نتيجة الصلاة تتوقّف على طبيعتها وكثافتها.

فاليوم، في لورد، قد باتت العجائب أَقلّ تواتراً ممّا كانت عليه لأَربعين أو خمسين سنة خلت، إِذ إِنّ المرضى ما عادوا يجدون فيها جوّ الخشوع العميق الذي كان يسودها فيما مضى، وقد أصبح الحجّاج سائحين، وفقدت صلواتهم جدواها.

تلك هي آثار الصلاة التي وقفتُ عليها، على نحوٍ موثوق. وإِلى جانبها هناك غيرها، ممّا لا يحصى له عدد. فتاريخ القدّيسين، حتّى الحديثين منهم، يسرد الكثير من الأَحداث الخارقة، ولا ريب أَنّ معظم العجائب التي تعزى إِلى خوري أرس، على سبيل المثال، هي حقيقيّة، ومجموعة الظواهر هذه تلج بنا داخل عالمٍ جديد لم يُكتشف بعد، سيكون حافلاً بالمفاجآت. إِنّ ما نعرفه، الآن، معرفة واثقة، هو أَنّ للصلاة آثاراً ملموسة، ومهما بدا

الأَمر مستغرباً، علينا الإِقرار بصحّة القول: إِنّ من يطلب يجد، ومن يقرع يُفتَح له .

معنى الصّـــــــــــــــــلاة

بالإجمال، كلّ شيء يحدث وكأنّ اللّه يصغي إلى الإنسان ويجيبه. وليست الصلاة وهماً، ولا يسوغ حصر حسّ المقدّسات بالقلق الذي يخامر الإنسان حيال المخاطر المحيقة به، وإزاء أسرار الكون، ولا أن نجعل من الصلاة جرعة دواء مسكّن، أو علاجاً ضدّ أنواع الفزع من الألم والسّقم والموت.

ما هو، إذن، معنى الحسّ بالمقدّسات ؟ وما هو الحيّز الذي تحدّده الطبيعة ذاتها للصلاة في حياتنا ؟ في الواقع إنّ لهذا الحيّز شأناً كبيراً ... لقد كانت المدينة القديمة، في المقام الأوّل، مؤسّسة دينيّة، وكان الرومان يشيدون في كلّ مكان هياكل، وأجدادنا، إبّان القرون الوسطى، قد غطّوا بالكاتدرائيّات والكنائس الغوطيّة أرض المسيحيّة، وحتّى أيّامنا هذه، ترتفع قبّة جرس، فوق كلّ قرية. وقد أرسى الحجّاج القادمون من أوروبا، حضارة الغرب، في العالم الجديد، على الكنائس والجامعات والمصانع على السواء، وخلال تاريخنا، تبيّن أنّ الصلاة حاجة أساسيّة، شأنها شأن الفتح، والعمل والبناء، والحبّ.

في الواقع، إنّ الحسّ بالمقدّسات نزعة نابعة من أعماق طبيعتنا، ونشاط أساسيّ، ووجوهها المختلفة، في جماعة بشريّة ما، مرتبطة، على نحوٍ شبه دائم، بأوجه نشاط أُخرى، أساسيّة، مثل الحسّ الخلقيّ، وقوّة المراس، وأحياناً حسّ الجمال. ومع ذلك فنحن قد سمحنا لهذا الجزء من ذاتنا، وهو الأرفع شأناً، أن يضمُر، وغالباً أن يضمحلّ.

و لا بدّ من التذكير بأنّ الإنسان لا يستطيع، من غير خطر، التصرّف على هواه. فالحياة، كيما تؤتي ثمارها، يجب أن تسير وفق قواعد ثابتة، نابعة من طبيعة تكوينها، ونحن نعرّض ذواتنا لمخاطرة جسيمة، عندما ندع أيّ نشاط أساسيّ فينا يموت، سواء كان ذا طبيعة فيزيولوجيّة أو عقليّة، أو روحيّة. فعلى سبيل المثال، إنّ إفتقار بعض المفكّرين إلى نموّ في العضلات، أو في الهيكل العظميّ، أو في نشاطات الفكر غير العقليّة، ينطوي على مثل ما ينطوي عليه من وبالٍ هزالُ العقل والحسّ الخلقيّ عند بعض أبطال القوّة البدنيّة. وهناك أمثلة لا تحصى عن أُسَرٍ خصبة الإنتاج وقويّة، لم تعد تنجب غير المسوخ، أو هي انطفأت تماماً، بعد أن تخلّت عن معتقدات الأجداد، وعن التمسّك بمعايير الشرف. ولقد تعلّمنا، بفضل تجربة قاسية، أنّ ضياع الحسّ الخلقيّ، والحسّ بالمقدّسات، لدى القسم الأكبر من العناصر النشيطة في أمّة ما، يفضي إلى انحطاط هذه الأُمّة، ووقوعها في عبوديّة الدخلاء. لقد جاء سقوط اليونان القديم في أعقاب ظاهرة مماثلة.

فمن الجليّ أنّ نجاح الحياة يتعارض وانتباذ نشاطات نفسيّة تفرضها الطبيعة.

عملياً يقوم ارتباطٌ وثيق بين النشاطات الخلقيّة والدينيّة، فالحسّ الخلقيّ لا يلبث أن يتلاشى، في إثر تلاشي حسّ المقدّسات. وقد عجز الإنسان عن بناء نظامٍ خلقيّ مستقلّ عن أيّة عقيدة دينيّة، على نحو ما تخيّله سقراط. والمجتمعات التي تنتفي لديها الحاجة إلى الصلاة، ليست، في العموم، بعيدة عن الانحطاط، ومن ثمّ فلا مفرّ لجميع المتحضّرين، ملحدين كانوا أو مؤمنين، من أن يعنوا بالقضيّة الخطيرة المتمثّلة في إنماء كلّ نشاط مؤهَّل له الكائن البشريّ.

لمَ يلعب حسّ المقدّسات دوراً على هذا الجانب من الخطورة في نجاح الحياة ؟ ووفق أيّة آليّة تفعل الصلاة فينا ؟ إنّنا هنا ننصرف عن مجال المراقبة إلى مجال الافتراض. بيد أنّ الافتراض، حتّى الذي يتّسم بالمخاطرة، شرط للتقدّم لا غنى عنه، ويجب ألاّ يغرب عن بالنا، أوّلاً، أنّ الإنسان كلٌّ لا يتجزّأ، يتألّف من أنسجة، وسوائل عضويّة، ووجدان، وقد يُخيّل إليه أنّه مستقلّ عن محيطه المادّيّ، أي عن الوجود الكونيّ، ولكنّه، في الواقع، لا يستطيع عنه انفكاكاً، فهو مرتبط بهذا المحيط، من جرّاء حاجته المستمرّة إلى أوكسجين الهواء، والأغذية التي توفّرها الأرض. ولكن، من ناحية أُخرى، لا ينتظم الجسم بأكمله، في المحيط المادّيّ، إذ هو يتألّف من روح ومادّة على السواء، ولئن كان الروح يقيم في أجهزتنا، إلاّ أنّه يمتدّ خارج أبعاد الفضاء والزمن الأربعة. أوَ لا يحقّ لنا الاعتقاد أنّنا نقطن، في آنٍ معاً، في العالم الكونيّ، وفي عالمٍ آخر غير محسوس، وغير مرئيّ، وغير مادّيّ، ذي طبيعة تحاكي طبيعة الوجدان، لا يسعنا الاستغناء عنه من غير أن نصاب بأذى، مثلما لا يسعنا الاستغناء عن العالم المادّيّ والبشريّ ؟ وقد لا يكون هذا المحيط سوى الكائن الكامن في كلّ الكائنات، والذي يسمو فوقها كلّها جمعاء، والذي ندعوه اللّه.

بوسعنا، إذن، تشبيه حسّ المقدّسات بالحاجة إلى الأوكسجين، بحيث يقوم وجه محاكاة بين الصلاة ووظيفة التنفّس. وحينئذٍ ينبغي اعتبارها عامل علاقات طبيعيّة بين الوجدان ومحيطه الخاصّ، وكوظيفة بيولوجيّة، نابعة من تكويننا، وبعبارة أُخرى، كوظيفة طبيعيّة من وظائف جسمنا وروحنا.

خلاصة

بالإجمال، يرتدي حسّ المقدّسات شأناً فريداً بالنسبة إلى أوجه نشاط الروح الأُخرى، إذ يضعنا على اتّصال مع رحابة عالم الروح السرّيّة، فبالصلاة ينطلق الإنسان نحو اللّه، وبها يدخل اللّه في الإنسان، بحيث تبدو الصلاة ضرورة أساسيّة لازدهارنا الأمثل. لا يسوغ، إذن، أن نرى في الصلاة عملاً يمارسه البُلْه، والمتسوّلون، والجبناء، على حدّ قول نيتشه: " من المخزي أن نصلّي ". ففي الواقع ليس في الصلاة خزي أكثر ممّا في الشرب أو التنفّس، ولا تقلّ حاجة الإنسان إلى اللّه عن حاجته إلى الماء والأوكسجين.

إنّ الحسّ بالمقدّسات، عندما يقترن بالحدْس، وبالحسّ الخلقيّ، وبحسّ الجمال، وبنور العقل، يسبغ على الشخصيَّة كامل ازدهارها، وما من ريب أنّ نجاح الحياة يقتضي نموّاً مطلقاً لكلّ نشاطاتها الفيزيولوجيّة والفكريّة والعاطفيّة والروحيّة.

إنّ الروح، هو، في آنٍ واحد، عقل وشعور. ومن ثمّ، علينا أن نحيط بحبٍّ واحدٍ العلمَ وجمال اللّه، علينا أن ننصت إلى باسكال، في مثل الورع الذي ننصت فيه إلى ديكارت.

مقاطع من مذكّرات أَلِكسي كاريل

مبادىء الأَخلاق:

مبادئ الأَخلاق هي للشعور ما المنطق للفهم، هي نظام النشاطات العاطفيّة، مثلما المنطق هو نظام النشاطات العقليّة. يمكن اعتبار المنطق شريعة العقل العليا، والأَخلاق شريعة الشعور العليا.

هناك من يعجز فكرهم عن التكيُّف مع قواعد المنطق، أولئك هم مخلوقون من مستوى أدنى، وواهنو العقول. وهناك آخرون عاجزون عن التقيّد بشرائع الأَخلاق، أولئك يُدعون حمقى الأَخلاق ؛ وقد يتوافق الحمق الأَخلاقي مع ذكاء لامع، ممّا يجعل حمقى الأَخلاق أَعضاء يهدّدون المجتمع بأَرهب المخاطر.

منذ أَن انعتق الإِنسان، خلال تطوّره، من آلية الغريزة، بات بقاؤه يقتضي خضوعه الطوعيّ لشرائع جسمه وفكره، وبعبارة أُخرى، للشرائع الفيزيولوجيّة، والمنطق وشرائع الأَخلاق.

الغريزة كانت تكفل بقاء الفرد والسلالة على السواء، ولكن بحلول الحرّيّة غدا بقاء الإِنسان متوقّفاً على ذهنه وإِرادته.

إِنّ عالم المادَّة، وعالم الحياة، قائمان على نهجٍ معيّن، وهما خاضعان لقوانين، ولكنّ هذه القوانين صامتة، ولا يقوى أحد على خرق قوانين الحياة، من غير أَن يناله، عن ذلك، عقاب، وقد يطاله العقاب في ذاته، أو يطال ذرّيّته.

و ما مبادئ الأَخلاق سوى القواعد التي يتعيّن على البشريّين الخضوع لها، إِن هم حرصوا على البقاء، كأفراد وكأجناس. وقواعد الأَخلاق، لدى الإِنسان المتميّز بالعقل، تقوم في الواقع، مقام قوانين الغريزة، وهي وحدها كفيلة بتأمين البقاء، فبقاء الفرد يقتضي حظر القتل ؛ وبقاء الأسرة يقتضي تحريم الزنى، وفرض احترام الأَبناء للآباء ؛ ومن أجل بقاء الجنس لا غنى عن العيلة، ولكي تكون الحياة في المجتمع ممكنة يجب القضاء على السرقة والحسد، والبخل، والكبرياء.

و فوق كلّ شيء، يجب أَن يحترم الجميع شريعة الحبّ، وروح الإِنجيل.

فالملاط الوحيد الكفيل بشدّ البشر، بعضهم إِلى بعض، هو الحبّ، ولكنّ الحبّ لا يفرض جهداً لحبّ الآخرين فحسب، بل يفرض أَيضاً على كلّ فرد أَن يجهد في أَن يكون محبوباً، إِذ يستحيل حبّ الحسود والأَنانيّ واللئيم.

إنّ الإلمام بمادئ الأَخلاق ضرورة لبقاء الفرد والجماعة، كالإلمام بمبادئ الفيزياء والفيزيولوجيا.

بيد أَنّ مبادئ الأَخلاق أَصعب من الفيزياء، إذ إنّ تطبيقها يقتضي جهداً جسيماً. ومن جهة أُخرى، لا يمكن التعبير عنها وفق معادلة رياضيّة.

فرق كبير يقوم بين يسوع الناصريّ ونيوتن، فاكتشاف شريعة الحبّ المتبادل يفوق شأناً، وإلى أَبعد الحدود، اكتشاف قانون الجاذبيّة.

و ما يعارض شرائع الأَخلاق يدعى الخطيئة.

الخطيئة، إذن، هي التي تعيق بقاء فرد، مكتمل الجسم والعقل، ومضطلع بدوره الاجتماعيّ والعرقيّ.

الخطيئة، إذن، هي التي تفرّق وتشتّت، والفضيلة هي التي توفّر التكامل.

الفضيلة عامل ابتناء وتمثّل.

و الخطيئة عامل هدم.

الأَنانيّة تعزل الفرد عن جميع الآخرين، وتحطّم المجتمع إلى شظايا، وتجعل كلّ محاولة عمل جماعيّ عقيمة، وتفتّت، على السواء، الأُسرة، والتجمّع المهنيّ، والقرية، والأمّة.

إنّ مبادئ الأَخلاق الإنجيليّة باتت غير مفهومة.

و لم يعد لدى رعاة الكنيسة جرأة على تعليمها بحذافيرها، فهم يجلهون كيف يفسّرون الخطيئة، وكيف يبيّنون طبيعتها، بل لا يدركون، هم أَنفسهم، أَنّ شريعة الحبّ المتبادل وحبّ اللّه هي التي تكفل بقاء الفرد، والجماعة، والجنس. وعندما يعظون، معلّمين ضرورة حبّ القريب يُغفلون دائماً أَنّ واجب كلّ إنسان لا يتمثّل في حبّ الآخرين فحسب، بل أَيضاً، وخصوصاً، في أَن يمسي هو ذاته جديراً بحبّهم.

إنّ شريعة الحبّ واجبٌ وامتيازٌ في آنٍ واحد: واجب الحبّ، وامتياز أَن يغدو المرء محبوباً. ولكن لا يمكن أَن يُحَب من أنطوت حناياه على الأَنانيّة، والمرارة، وعدم الاستقامة، ومن كان فظّاً، نمّاماً، شتّاماً، لئيماً. فالفرد المفتقر إلى التهذيب، القاسي، الفظّ، حتّى ولو كان حبّ القريب يلتهمه، يخرق شريعة الإنجيل، إذ يعيق الآخرين عن تأدية واجبهم المتمثّل في حبّه هو.

إنّ نجاح المسيحيّة المباشر نجَم عن اكتشاف الملاط الوحيد القادر على جمع الناس معاً، وعلى جمع الفرد مع حياته ومع الكون.

أَمّا فشلها الحاليّ فسببه أَنّ معظم المسيحيّين أَنفسهم لا يتقيّدون بشريعة الحبّ، ولهذه الشريعة من الشأن الجوهريّ في عالم البشر ما لشريعة جاذبيّة الأَرض من شأن في عالم

المادّة. فمنذ أن حرم التطوّر البشر من آلية الغريزة، أمسى الحبّ هو عامل بقاء المجتمع الرئيسيّ.

الحبّ يجمع، والبغض يُفرّق.

كلّ ما يفرّق يدعى خطيئة، والخطيئة هي ما يتعارض مع الحياة، حياة الفرد الجسميّة والروحيّة، وحياة الجماعة والجنس البشريّ.

إنّ الجهل والكسل، وانتباذ الجهد، والإفراط، والإدمان والفحشاء، تحطّم من الفرد جسمه وروحه على السواء، كذلك انعدام التهذيب، والتشهير والنميمة والغضب، والغيرة، والحسد والبغض والزنى، من شأنها تدمير الأُسرة والمجتمع.

الكسل والصدوف عن الجهد، والجهل، خطايا ترتدي من الخطورة ما يرتدي الكذب والزنى والسرقة.

الخطيئة تحول دون تكامل الجسد والروح، وتكامل المجتمع والجنس، وكذلك تعيق اتّحاد الإنسان بالكون وباللّه.

****

إنّ قواعد السلوك، المستخلصة من قوانين الحياة، تتوافق توافقاً مذهلاً مع قوانين الأَخلاق المسيحيّة، وهذا الواقع يدلّ على أنّ مبادئ الأخلاق لم تكن بدعة تقويّة أو أسلوباً لقمع الناس في مصلحة فئة ما، أو ضرباً من أَفيون الشعب، بل كانت هي شريعة البقاء، التي اكتشفتها، جزئيّاً، خبرات البشريّة عبر القرون، وحدْس بعض الناس البعيد المدى، وبشارة يسوع. تلك البشارة التي بلغت من الإدهاش ما جعل تاريخ حقبتنا يبدأ بها.

إنّ الدين يهب الإنسان دفعاً جبّاراً يؤازره على التقيُّد بقوانين الحياة، إذ هو يضيف عنصراً عاطفيّاً إلى العنصر العقليّ.

إنّ الإنسان، بفعل تركيبه، يؤنس حاجة إلى منح نفسه لكائن حيّ، أَكثر ممّا قد يهبها لفكرة مجرّدة: فحبّ الإنسان أَشدّ من حبّ الفكرة.

فراهبة المحبّة التي تهبّ، منهكة، في الرابعة صباحاً، لتستأنف مهمّة لن تنتهي أَبداً، تبذل هذا الجهد المضني حبّاً بيسوع، وحبّاً بالفقراء والصغار، لا بدافع الإيثار، أو من أَجل تأدية دور في هذا العالم.

إنّ الدين يُسبغ على السلوك عنصراً عاطفــيّاً.

نحن راضون بالخضوع لنواميس الطبيعة، ولكنّ خضوعنا هذا يتمّ في فرح أوفر، إن كانت شرائع الطبيعة هذه تعبيراً عن إرادة شخص، ليس قوّة عمياء، بل هو عقل مثل عقلنا، ويصبح رضانا بها أكبر إن كان هذا العقل قد تجسّد، وإن كان واحد منّا قد أصبح ابناً للّه.

العقل لن يكون، أبداً، دافعاً للبشر، بل يجب أن يضاف إليه الشعور، والحميّة، والحبّ. لقد كانت الصوفيّة المسيحيّة، طوال قرون، هي ملهمة التفاني والمحبّة. أوَلا يمكن أن يستوعبها نظام حياة فرديّة واجتماعــيّة، قائمة على الواقع البشريّ، الذي يتجلّى لنا من خلال المراقبة والتجربة ؟

و القداسة ضرورة لا غنى عنها، ولا بدّ من أن يتضمّنها أسلوب حياة يتوافق وشرائع جسمنا وفكرنا.

الصلاة والطقوس الدينيّة، هما التعبير الأَمثل عن النشاط الصوفيّ، وعن حسّ المقدّسات الذي يمثّل أحد أوجه الروح الأَساسيّة.

إنّ الحاجات الإنسانيّة الأَساسيّة قد تبدو متضاربة، ولكن يمكن الجمع بينها على تناغم. إنّ المغالاة في إرضاء إحداها، وإنماءها على نحوٍ مصطنع، يجب ألاّ يحجب وجود حاجات أُخرى، والحاجات قد تكون واعية أو غير واعية، وحالة الرضى قد تتحقّق من جرّاء التوازن بين حاجتين متناقضتين، مثل الحاجة إلى المخاطرة والحاجة إلى الأَمن، والنشاط والراحة، السهر والنوم، الحرّيّة والقانون، أو من التوازن بين حاجات متكاملة: حاجات فيزيولوجيّة، حاجات فكريّة، وحاجات عاطفيّة .

****

– يجب ألاّ يغرب عن بالنا، أنّ كلّ إنسان يؤنس، في فترةٍ ما من حياته، حاجة إلى الصلاة.

– إنّ حيوانات تفتقر إلى الغريزة، وإلى الحسّ الخلقيّ، ولكنّها تملك مواهب عقليّة مفرطة النموّ، لهي عاجزة عن البقاء، عجز الحيوانات ذوات الدم البارد في العصر الثالث، التي كانت تتميّز بأحجام مفرطة الضخامة، ودماغ في غاية الضآلة.

– إنّ التطوّر لا يسير في تقدّم مطّرد، بل هو غالباً ما قد تعرّض للتقهقر، ولا شيء يضمن مستقبل جنسنا.

– لا جدوى من العلم، إذا ما أصاب الانحلال المجتمع والجنس.

– لن تنجح الحياة، إلاّ إذا سلكناها وفقاً لقوانينها الخاصّة.

– لن نقوى، يوماً، على بناء المدينة الجديدة، بواسطة شباب أَفسده مثال الكبار.

– غاية الحياة هي القداسة، لا العلم، غير أنّ القداسة لا تستطيع، في منأى عن مؤازرة العلم، تنظيم الحياة ودفعها في النهج السويّ. مهمّة العلم، إِذن، تتمثّل في أَن يتيح للناس، بلوغ القداسة.

– ينبغي أَن تُدعم الصوفيّة المسيحيّة بسلاح علم الإِنسان.

– يجب أَن نسامِح لنسَامح، وأَن نضحّي بذواتنا لنخلص.

مقتطفات من " نجاح الحياة "

– علينا أن نرتقي وإلاّ هلكنا

– السبيل الوحيد لبلوغ السعادة، هو الدأب على إنجاح الحياة. ولا يفيد في شيء ملاحقة السعادة من أجل ذاتها، فهي إنّما تأتي تتويجاً لنجاح الحياة.

– الفرد الذي يبذل كلّ جهد ممكن ليرقى بروحه إلى أرفع ذرى يستطيع تسنُّمها، قد أنجح حياته: ذلك هو شأن البطل والصوفيّ.

الحياة الفرديّة قابلة للنجاح، في أيّ محيط، ولدى أيّ فرد، حتّى ولو كان سقيماً أو مصاباً بعاهة، إلاّ أنّ نجاح الحياة يتعارض وانعدام الشخصيّة الخلقيّة.

– إنّ قوانين السلوك يجب أن تهدف، عبر الفرد، إلى الأفراد الآخرين، الحاليّين والمقبلين، ولا يسوغ أن يتمّ خلاص واحد على حساب الآخرين، فضلاً عن أنّ نجاح الحياة على الأرض مرتبط بنجاح حياة كلّ فرد بشريّ، وبجهد كلّ واحد.

– إنّ أيّة مجموعة اجتماعيّة، أسرة كانت أو قرية، أو مدينة، أو منطقة أو أمّة، هي أكثر من مجموع الأفراد الذين تتألّف منهم، إذ هي تضمّ، لا الأحياء فحسب، بل الأموات أيضاً، الأموات الذين ما فتئوا يكتنفوننا بفكرهم وتبصّرهم، وحبّهم، وغالباً، أيضاً، بأخطائهم، فلولا الأموات الذين نقطن في بيوتهم ونستمثر حقولهم ونستخدم معارفهم ومبادئهم وتقنياتهم، لما كنّا سوى همج زريّين.

فسعادتنا وتعاستنا لا تتحدّران منّا بقدر ما تتحدّران من أجدادنا، ونحن، في دورنا، سنكون إلى حدٍّ ما بعيد، مسؤولين عن سعادة ذرّيّتنا وتعاستها.

إنّ المجتمع الحاليّ مرآة تعكس ما انطوى عليه أجدادنا، وما ننطوي نحن عليه من فساد، ووهن، وحمق. ومجتمع الغد يساوي ما نساوي نحن وما يساوي أولادنا.

إنّ كلّ جهد يتردّد صداه عبر الأجيال.

و كلّ مجتمع يحمل، فترة طويلة، في مؤسّساته، بصمات عقل من طوّروه، في حُقَبٍ ما، وجمالهم الخلقيّ، كما يحمل آثار التشويه الناجم عن خطل أحكامهم، وبطلان مبادئهم. كلّ جيل هو مستفيد من الجيل السابق وضحيّة له، على السواء. إنّنا نجد، في تكوين جسمنا وروحنا، واجب إكثار جنسنا في كماله العضويّ والفكريّ، فارتقاء الحياة شطر الروح، يجب أن يستمرّ عبر الجنس البشريّ.

و بالتالي، يتوجّب على كلّ فرد، وفق طاقاته، أن يساهم في تقدّم المجموعة الاجتماعيّة التي توفّر للخلف المحيطَ الذي سينمو فيه. إذن، لا يسوغ لأحد أن ينعزل تماماً في ذاته،

وأُسرته، واختصاصه. إذ إنّ من يحجم عن الإسهام الفعّال في الحياة الجماعيّة، ولا سيّما في حقب الأَزمات الكبرى، فهو يتقاعس عن واجبه حيال أَبنائه.

و في سبيل تهيئة مجتمع الغد، ينبغي، قبل كلّ شيء، إدراك واقع اليوم.

– للمرّة الثانية، قطف الإنسان، على شجرة المعرفة، الثمرة المحرّمة، وأَفلح في بناء فردوس أَرضيّ جديد، ولكن، للأسف، اعتور مخطّط البناء خلَل، إذ إنّ علوم المادّة الجامدة قد تقدّمت على نحوٍ يفوق كثيراً سرعة تقدّم علوم الحياة، وكان للإنسان علم بقوانين الميكانيك والفيزياء والكيمياء، ولكن لا علم له بذاته، بل كان يجهل حاجات جسمه وروحه الفعليّة، وبالتالي فقد أَشاد فردوساً لا يلائمه ... وحكم على نفسه أَن يعيش بين شعب الآلات الخالي من الروح، على هوى تقدّم التقنيّة، وعلى غير اكتراث لمقتضيات طبيعته الأَساسيّة...

إنّ أَسباب انهيارنا الحضاريّ إنّما هي أَخلاقيّة، أكثر ممّا هي سياسيّة أَو اقتصاديّة.

كيف لنا أَن نخلص وننقذ حضارتنا ؟ لن يأتينا العون إلاّ من أَنفسنا، ولكنّنا في حالة الشقاق والاضطراب التي تلــفُّنا، عاجزون عن تطوير مؤسّساتنا مباشرة، إذ إنّ المجتمع الحديث بناء ثقيل، ينوء بكلّ أَخطاء الماضي.

و نحن نفتقر، الآن، إلى الذكاء والقوّة الكفيلين بمنحنا قوّة إشادة عالم جديد برمّته، ولكن قبل تجديد مؤسّساتنا، علينا الشروع بتجديد ذواتنا. وجهد التجديد هذا يستطيع كلٌّ منّا أَن يبدأه في الحال. لا ريب، قد يبدو من الحمق الاعتقاد أَنّنا، على ضآلتنا، قادرون على تجديد أُمّتنا، بفضل جهدٍ فرديّ متناهي الصغر، إذ إنّ مساهمة كلّ فرد في هذه الظروف المهمّة تظلّ على قدرٍ كبير من الضآلة، بيد أَنّ جهداً ضئيلاً جدّاً، إذا ما هو تضاعف ملايين المرّات، يصبح جبّاراً لا يُقاوَم، ومن ثمّ يجب ألاّ يعتبر أَحد أَنّ مساهمته في العمل المشترك نافلة، مهما بدت زريّة.

و ليس أَقسى من أَن يتخلّى المرء عن أَنانيّته، وإفراطه، وفظاظته، وكسله، واختلاله العصبيّ، وكبريائه، وكلّ المعايب التي تعيق نموّ شخصيّته، وتجعله للآخرين بغيضاً، تلك المعايب التي تصيبنا بالوهن، وتسبغ العقم على جهودنا، وتجعل منّا عناصر رديئة في البناء المجتمعيّ.

لكي تستعيد البشريّة عظمتها، عليها أن تعيد بناء ذاتها، ولن يتهيّأ لها ذلك من غير أَلم.

إنّ هذا العالم سيكون على نحو ما سنصنعه نحن، ونحن مخيّرون بين الفوضى والدمار، والعبوديّة، من جهة، ومن جهة أُخرى العمل الدؤوب على إعادة بناء ذواتنا بين بشر اليوم. كثيرون هم، روحيّاً، أَموات، فلا بدّ من تجمّع الأَحياء، بحيث تضاعف قدرة كلّ فرد قدرات جميع الآخرين مجتمعة، وحينئذٍ سينفصل الأَحياء عن الأَموات، غير أَنّهم لن يحتفظوا بالحياة، ما لم يدركوا شرائعها، فمن ابتغى الربح، عليه الإلمام بقواعد اللعب، إذ إنّ الربح

النهائيّ لا يتحقّق أبداً بالغشّ. وحدهم سيكونون الفائزين أولئك الذين قبلوا ألاّ يفوزوا بشيء من أجل أنفسهم، إذ إنّ المستقبل ملك لمن يجازفون بكلّ شيء في سبيل هدف، والحكمة ليست في العيش من غير عمل، أو في كسب المال، أو في الإخلاد إلى التقاعد، بل في العيش عيشةً بطوليّة. إنّ البطولة، في نظر الشباب الديمقراطيّ، جنون، ولكن، وحده هذا الجنون يؤتي ثماراً.

لن يكون المستقبل سوى ما سنكون نحن، ومن المؤكّد أنّ مبدأ القدر الأدنى من الجهد، وتعاليم المتعة، والليبراليّة الأخلاقيّة، تتعارض مع قوانين السلوك المدوّنة في تكوين جسمنا وروحنا، فلا بدّ من نبذها نبذاً مطلقاً.

و لكن ما الذي ستوفّره لنا الحياة، كما يجب أن تُعاش، مقابل تضحياتنا بالكسل وإشباع الشهوات ؟ قبل كلّ شيء، ستوفّر لنا الجهد والتضحية والألم، شأنها شأن كلّ نظام يرمي إلى ترويض الذهن والأعضاء والعضلات، ثمّ إنّها ستوفّر لنا شيئاً ذا قيمة تندّ عن التقدير، سيحرم منه، أبداً، أولئك الذين ينشدون فقط ملذّات الشرب والرقص وإشباع الرغبات الجنسيّة، وارتياد السينما، وجني المال، والتنزّه بالسيّارات والسفر بالطائرات. هذا الفرح الفذّ، الذي لا يلمّ به وصف، والذي لن يدركه إلاّ من أحسّ به، هو الدمغة التي تتّسم بها الحياة لحظة انتصارها، أي اللحظة التي تبلغ فيها نشاطاتنا الفيزيولوجيّة والعقليّة الهدف الذي يفرضه نظام الأشياء. إنّه فرح البطل الرياضيّ الذي أصاب هدفه، وفرح الفنّان حيال أثره المكتمل، وفرح العالم عند فجر اكتشافٍ ما، وفرح الشيخ بين ذراريه، فرح البطل الذي يقود شعبه إلى النصر، والقدّيس الذي يرقد في سلام الربّ.

أمام أولئك الذين يؤدّون، على وجه كامل، مهمّة الإنسان الموكلة إليهم، طريق الحقّ مُشرَع أبداً، وعلى هذا الطريق الملوكيّ، الفقراء والأغنياء على السواء، المرضى والضعفاء، وكذلك الأقوياء، الملحدون كالمؤمنين، كلّهم، من غير تمييز، مدعوّون إلى التقدّم، وإذا ما هم لبّوا هذه الدعوة، فهم واثقون من تحقيق مصيرهم، ومن الإسهام في عمل التطوّر السامي، وفي تعجيل حلول ملكوت اللّه على الأرض، ومن ظفرهم، فضلاً عن ذلك، بكلّ السعادة التي تتوافق والوضع البشريّ.

مقاطع من " خواطر في نهج الحياة "

لقد وجد الإنسان في نجّار الناصرة الإله السامي والأليف في آنٍ واحد، الإله الذي يلائمه. إنّ كلمات يسوع تلج حتّى أعماق حقيقة الحياة. إنّها تجهل الفلسفة، ولكنّها تحطّم جميع التقاليد. إنّها من العجب بحيث أنّنا ما زلنا، حتّى اليوم، نجد في إدراكها عناء.

هناك صلات قربى تشدّنا إلى جماعة الغورلّى، وبالتالي فإنّ عظة الجبل تصدم فينا بعض الميول الموروثة. فمن ألف الخضوع لشريعة الغاب، بدت له وصيّة حبّ القريب مثل حبّه لذاته، خرقاء.

و لكنّ يسوع على علم بعالمنا، وهو لا يزدرينا مثل أرسطو. بوسعنا أن نكلّمه فيجيبنا، فهو، ولئن كان شخصاً نظيرنا، إله يسمو فوق كلّ شيء، ولكن نستطيع أن نلقاه، أيضاً،فاعلاً في خشب المنضدة، وفي الطعام الذي نتناوله، في أشعّة الشمس التي تدفئنا، في الغابة والأرض والمحيط والسماء، إذ إنّه أبدع الأشياء كلّها، وهو يحفظها. وحيثما كنّا، وفي كلّ لحظة من النهار أو الليل، يبقى بمتناولنا، وبوسعنا الوصول إليه بمجرّد أن نحوّل إليه رغبتنا وحبّنا.

من الوقائع التي يسهل إقرارها، أنّه، حتّى في المجتمع الذي أوجده العلم والتقنية، ظلّت الحاجة إلى اللّه ماثلة، على نحوٍ متفاوت الوضوح، لدى عدد كبير من الأفراد. وإن لم تلبَّ هذه الحاجة، فهي غالباً ما تنحرف، شأنها شأن الحاجة الجنسيّة، غير أنّ عنادها في البقاء، حتّى في أقلّ الظروف ملاءمة، يظهر أنّه من الوبال تجاهلها.

إنّ الحاجة إلى اللّه تعبّر عن ذاتها بالصلاة. الصلاة صرخة استغاثة، واستنجاد، ونشيد حبّ، وليست تلاوة ألفاظ لا ندرك معناها تلاوة رتيبة، أمّا نتائجها فتكاد تكون دائماً إيجابيّة، وكأنّ اللّه يصغي إلينا، ويلقي إلينا جواباً مباشراً، فتجري أحداث غير متوقّعة، وتستعيد أذهاننا اتّزانها، ويتلاشى شعورنا بالعزلة والخَوَر، وعدم جدوى جهدنا، ويفقد العالم ظلمه وقسوته ويصبح صديقاً، وتنمو في داخلنا قدرة غريبة.

الصلاة تهب القدرة على تحمُّل الهموم والأحزان، وعلى الأمل حين لا يبقى للأمل من مبرّر منطقيّ، وعلى الاستمرار في الوقوف وسط الكوارث. مثل هذه الأحوال قد تحدث لجميع الناس، ولكنّها تحدث، بالأحرى، لمن يوصدون أبواب نفوسهم في وجه صخب الحياة الحديثة وفوضاها. إنّ دنيا العلم تختلف عن دنيا الصلاة، ولكنّها لا تتعارض معها، كما أنّ العقليّ لا يتعارض مع اللاعقليّ، إذ ينبغي ألاّ يغرب عن بالنا أنّ الفكر يتكوّن من نشاطات منطقيّة وأُخرى غير منطقيّة. أمّا نتائج الصلاة فيفسّرها العلم والدين على السواء، فتأثير الصلاة

يتعدّى فينا الحالات العاطفيّة، إلى السلوك الفيزيولوجيّ، فهي أحياناًتشفي، خلال بضع لحظات، أو بضعة أيّام، أمراضاً جسديّة، ولئن تجاوزت هذه الظواهر إدراكنا، فلا مفرّ لنا من الإقرار بحقيقتها الواقعيّة. ولقد سجّل مكتب التحقيقات الطبّــيّة في لورد أكثر من 200 حالة سلّ، وعمى، والتهاب النقيّ (مخّ العظام) وسرطان، وأمراض جسديّة أُخرى تمّ شفاؤها على نحوٍ تلقائيّ لا يقبل الجدل. إنّنا، هنا، نقف على أرض صلبة، فالإنسان يفتقر إلى مساعدة، ويصلّي فيأتيه العون، ومهما كان التفسير الذي سيعطى لهذا الواقع في المستقبل، إلاّ أنّ الواقع سيظلّ صحيحياً إلى الأبد.

إنّ معرفتنا للعالم المادّيّ تأتينا من جهد تشترك فيه التجربة والنظريّة، فبفضل التقنيات التجريبيّة، قد اكتشفنا وحلّلنا عدداً كبيراً من الظواهر الطبيعيّة، ثمّ جمعت النظريّة بين جميع هذه الوقائع في نظامٍ متماسك، واستشفَّت وقائع أُخرى، وأوحت بتجارب جديدة. وكذلك تستمدّ معرفة أسس العالم الروحيّ عناصرها من النظريّة والتجربة، أي من الصوفيّة واللاهوت، فالصوفيّة، كما هو معلوم، هي جوهر الدين، وتختلف التجربة الصوفيّة اختلافاً عميقاً عن المعرفة الفلسفيّة، اختلاف الحبّ عن العقل. وفضلاً عن ذلك، إنّها ستظلّ أبداً صحيحة، في حين أنّ المعرفة الفلسفيّة معرّضة للتحوّل، كما تحوّلت وستتحوّل، أيضاً، النظريّات الطبيعيّة.

إنّ كبار الصوفيّين نادرون، ندرة كبار العلماء. لقد كانت ولادة القدّيس بولس حدَثاً أجلّ شأناً من ولادة نيوتن وباستور. إنّ البحث التجريبيّ عن اللّه يقتضي دأباً طويلاً وشاقّاً، ولا يستطيع أحد انتهاج الطريق الصوفيّ قبل خضوعه لمشاقّ حياة تطهيريّة، وقبل أن يُصفّي حواسّه من الشوائب، وقبل ممارسته الفضائل المسيحيّة. حينئذٍ فقط تبدأ الرحلة التي تفضي إلى الاتّحاد باللّه، وليس هذا الاتّحاد فكريّاً، إذ إنّ اللّه سيظلّ أبداً مستعصياً على الوصف والإدراك، غير أنّ إلمام الشعور باللّه هو من القوّة والوضوح بحيث يعطي المتأمّل المتصوّف يقيناً تامّاً بحقيقته. واللّه الذي يتمّ اكتشافه على هذا النحو هو حبٌّ وليس عقلاً، وللبلوغ إليه، لا بدّ من اجتياز ليل مدلهمّ، يبدو وكأنّه توقّف نشاط الحواسّ والعقل. وكأنّ الإنسان لا يصل إلى اللّه، إلاّ بعد أن يكون قد أطفأ في داخله صور العالم، وأوقف، لفترة، مسيرة السياق الفكريّ. وبالإجمال إنّ التجربة الصوفيّة تؤكّد وتوسّع مدى استنتاجات اللاهوت، وتدعم تعليم الكنيسة التقليديّ، وتنهض شاهداً على قِيَم الدين.

هيهات أن تكون المسيحيّة قد ماتت، فالكنيسة، اليوم، مثلما كانت في القرون الأولى من تاريخها، ما فتئت تنتج رُسُل محبّة، ومتصوّفين وقدّيسين.

إنّ صحّة هذه التأكيدات، تمثّل، بلا ريب، مُبرِّراً للأمل.

لا يمكن تشبيه الإنسان المتحرّر من جميع القيود بنسرٍ يحلّق في أجواز السماء، بل هو، بالأحرى، يحاكي كلباً قد أفلت من مربضه، وتاه على غير هدى، في زحمة السيّارات. لا غروَ أنّه، مثل هذا الكلب، يستطيع التصرّف حسبما يهوى، وأن يذهب حيثما يحلو له الذهاب، ولكنّ ذلك لا ينفي عنه صفة الضياع، لأنّه يجهل أين يتوجّب عليه المضيّ، كما يجهل سُبُل اتّقاء المخاطرالمحيقة به. وأنّى له الظفر بالطمأنينة الأدبيّة التي كان ينعم بها أسلافه، عندما كانوا يشيدون على أرض أُوروبا الكاتدرائيّات الغوطيّة ؟ أولئك الرجال كانوا يؤلّفون مجتمعاً يحتلّ فيه كلّ فرد مكانه، حيث لا أحد منبوذ، وحيث الأكثر ضعة كالأجلّ شأناً، كان يعلم كيف يسلك، وأين يتّجه، كما يدرك معنى الحياة ومعنى الموت. أمّا اليوم فقد هجرنا، إلى الأبد، البيت الصغير الذي كان يمثّل عالم أجدادنا، هجرنا الأشجار والنباتات، وإخوتنا الحيوانات، والوادي العذب، حيث كان ملائكة الربّ يسيرون، أحياناً، إلى جوارنا، في ضباب الفجر، وقنعنا بأن نمسي ميكروبات غير مرئيّة، تائهة فوق ذرّة غبار، ضائعة، هي ذاتها، في سماء خالية. بتنا غرباء في هذا العالم السرّيّ، حيث لا تلقى أفراحنا ورغباتنا وقلقنا أيّ صدى، وحيث لا نقابل، في أيّ مكان، أثراً للروح.

غير أنّه يستحيل علينا تجاهل وجود عالم المحبّين والشعراء والقدّيسين. ولكن هذا العالم يختلف اختلافاً بعيد المدى عن العالم الحسّيّ، مع أنّه لا ينفصل عنه، ففي محيط الواقع الذي لا شاطئ له، لا يجد المرء سوى ما يبحث عنه. فيه القدّيس فرنسيس الأسّيزي قد اكتشف اللّه، وأنشتين اكتشف قوانين الفضاء. إنّ اللّه لا يمكن العثور عليه إلاّ خارج أبعاد المدى والزمن الأربعة، وراء حدود العقل، في تلك المنطقة التي تستعصي على الوصف، حيث وحدهما الرغبة والحبّ يستطيعان النفاذ.

عالم الفيزيائيّين، وعالم المتصوّفين، كلاهما موصدان في وجه سواد الناس، فالأوّل يشار إليه برموز رياضيّة ما زلنا عاجزين عن فهمها، والثاني يُعبَّر عنه بألفاظ فلسفيّة قادمة من القرون الوسطى، بتنا قاصرين عن الألمام بها، وكلتا اللغتين تستعصيان إلاّ على فئة ضئيلة من أولي العلم. وبين ميدان الروح وميدان المادّة، لم يبقَ اليوم من اتّصال، إذ لم يفطن أحد إلى أن يكرّر، من أجلنا، المحاولة التي قادها بنجاح القدّيس توما الأكويني من أجل أبناء القرون الوسطى. ومع ذلك، فنحن نفتقر إلى عالم متماسك، حيث يسع كلّ فرد أن يجد مكانه، من جديد، وحيث لا انفصام بين المادّيّ والروحيّ، وحيث نعرف أيّة وجهة علينا أن نقصد، فقد أخذنا ندرك أنّه من الخطر السير من غير بوصلة، ومن غير دليل، على دروب الحياة.

إنّ الإنسان الحديث قد أولى المادّة الأولويّة، وضحّى بالروح على هيكل الاقتصاد، وآثر الرفاه على القوّة والفرح. هجر أرض أجداده، مثلما هجر أصدقاءه الوضيعين، الحيوانات، ليعيش بين ظهراني شعب الآلات الخالي من الروح. لقد نسي حقول القمح

المتموّجة تحت الشمس، وخشوع الغابة، وسجوّ الليل، وسنى النباتات والأَشجار والمياه المشبع بالتناغم، وانزوى في المدن المتجهّمة، ذات الخطوط الهندسيّة، وخلع شخصيّته في عمل المصانع الرتيب، وانتهك، في غفلة عن نفسه، جميع نواميس الحياة، وحينئذٍ اكتمل طلاقنا من الواقع.

نحن، اليوم، نسير على درب الزمن، على هوى تقدُّم التقنية، غير عابئين بمقتضيات أجسادنا وأَرواحنا الجوهريّة. إِنّنا نغوص في لجج المادّة، ومع ذلك نتوهّم أَنّنا مستقلّون عنها. نتجاهل أَنّ بقاءنا يفرض علينا التصرّف، لا وفق نزواتنا، ولكن حسبما يقتضيه تكوين الأَشياء وتكويننا نحن. في هذا الخطأ تغرق البشريّة المتحضّرة منذ عدّة قرون.

إِنّ تاريخ تحرّرنا من قيود الآداب وتخلّينا عن المقدّسات يختلطُ مع تمرّدنا على قوانين طبيعتنا الأَساسيّة، فاعتبارنا، مثلاً، أَنّ الربح هو الهدف المحدّد للوجود، قد حدّ، اعتباطاً، من مجال النشاط البشريّ، إِذ يستحيل قصر جهودنا على نشدان مكاسب ماديّة فحسب من غير أَن نضيِّق مدى شخصيّتنا.

إِنّ " الإِنسان الإِقتصادي " إِنّما هو اختراع الليبراليّة والماركسيّة، وليس من إِبداع الطبيعة ؛ فالكائن البشريّ لم ينشأ،مطلقاً، في سبيل الإِنتاج والاستهلاك، بل هو، منذ بدء تطوّره، قد برهن عن حبّه للجمال، وعن حسٍّ دينيّ، وفضولٍ عقليّ، وخيالٍ خلاّق، وروح تضحية وبطولة، وما قَصْرُ الإِنسان على النشاط الاقتصاديّ سوى بتر جزء منه. إِذن، الليبراليّة والماركسيّة، كلتاهما، قد انتهكتا ميولاً جوهريّة في الطبيعة.

التضحية:

إِنّ التعارض القائم بين الحرّيّة البشريّة ومقتضيات سُنَن الطبيعة، يجعل التقشّف شرطاً لا مفرّ منه، إِذ يتعيّن علينا، إِذا أَردنا تجنّب كوارث قد تلحق بنا وبأبنائنا، أَن نقاوم الجمّ من النزوات والميول والرغبات، لا بل يستحيل علينا مسايرة نظام الكون من غير تضحية، فالتحضية هي أَحد قوانين الحياة.

الصحّة، والمنعة، وطول الحياة لا تتهيّأ إِلاّ بفضل السيطرة على بعض الشهوات كما إِنّه لا عظمة ولا جمال، ولا قداسة، في منأى عن التضحية.

كثيرون، في سبيل تحقيق مصيرهم، قد نبذوا الرفاه والمتعة والثروة، بل الحياة نفسها. إِنّ عهدنا قد أَهلّ تحت علامة التضحية، ولكنّ التضحية ليست وقفاً على الأَبطال والقدّيسين،

بل هي فرض على الجميع، إذ إنّها من مقتضيات الحياة البشريّة الجوهريّة ... فكلّما استخدم الإنسان حرّيّته كلّها، خالف نواميس الطبيعة وتعرّض لعقاب شديد. إنّ نجاح الحياة يستوجب التضحية، إذ بتخلّيه عن جزء من حرّيّته يستطيع الإنسان التوافق مع نظام الأشياء، فالتقشّف من مستلزمات الحياة.

في الحقيقة، لقد غرب عن بال حضارتنا أنّها وُلدت من دم المسيح، كما أنّها ذهلت عن اللّه ونسيته، غير أنّها ما زالت تدرك جمال الروايات الإنجيليّة، وعظة الجبل، تلك الكلمات المفعمة بالرأفة والحبّ، التي تؤتي السلام، بل الفرح، أحياناً، للمغلوبين والمنكوبين، والضعفاء، والمرضى، والذين يعانون من سكرات الموت، لا بل لنا جميعاً، نحن الذين ستسحقنا، عاجلاً أم آجلاً، آليّة الحياة التي لا ترحم.

لقد أُشبعت روح الحضارة الغربيّة، في طفولتها، بالمسيحيّة، ولم يستطع شيءٌ أن يحلّ في القلب البشريّ، محلّ جمال الأخلاقيّة الإنجيليّة وصفائها.

الفضيلة:

قد يخلط البعض بين الفضيلة والرئاء أو التعصّب، أو القسوة، أو التقوقع، في حين أنّ الفضيلة رجولة وجمال ونور. إنّ لها من الشأن في حماية الحياة الفرديّة والاجتماعيّة مثل ما للغريزة لدى الحيوانات البرّيّة. إنّها شرط بقائنا، فبدفعٍ منها يتصرّف كياننا وفق النهج الذي يقتضيه تركيبه الجسديّ والنفسيّ.

و بالتالي، ففي الإعراض عن الفضيلة من الحمق مثل ما من حمق في استبدال الوقود بالماء في محرّك انفجاريّ، أو في مزج الزيت بالرمل في آلة ما.

نحن اليوم ندرك أنّ للفضيلة طابع الإلزام، إذ هي ليست سوى الخضوع لنواميس الحياة الأساسيّة، وإذا ما عصا الإنسان هذه النواميس، فهو يعرّض نفسه، وبلاده ،و ذرّيّته، للانحطاط، فالموت.

إنّ مهاودة الشرّ خطأ خطير، وليس كلّ فرد حرّ في السلوك كما يحلو له، وكلّ من أباح لنفسه الانقياد للنهم والكسل، والنميمة، أو لأيّة رذيلة، يجب اعتباره متجنّياً على المجتمع.

كلّ خطيئة تنجم عنها اضطراباتٌ جسميّة وعقليّة واجتماعيّة يصعب، على العموم، إصلاحها.

المحبّة:

من المستغرب أَنّ البشريّة قد رفضت، حتّى الآن، القبول بمبدأ أَنّ السعي لصالح الآخرين، شرط لا بدّ منه لاستقامة الحياة الجماعيّة، ومع ذلك، فهي تدرك أَنّ محبّة القريب، لا بل محبّة العدوّ، وغفران الإِهانات، والإِحسان، تمثّل قاعدة الأَخلاق الأَساسيّة، فهي قد تلقّنت، منذ نحو أَلفي عام، هذه المبادئ، إِلاّ أَنّ الأَفراد القلائل الذين يخضعون للوصيّة الإِنجيليّة، قد يظرون، أَحياناً، باحترام الآخرين، ولكنّهم، في الغالب، يُعتَبرون حمقى أو مهووسين، ولا أَحد يدرك أَنّ شريعة الحبّ هذه هي مبدأ ازدهار الجماعات البشريّة الأَساسيّ، وشرط بقائها.

لماذا، إِذن، تظلّ هذه الشريعة، وهي على هذا القدر من الصواب، بعيدة عن التحقيق ؟ ربّما لأَنّها غير قابلة للتحقيق، إِذ إِنّ أَحداً لم يحاول جعل تحقيقها ممكناً. إِنّ لشريعة حبّ القريب وجهين إِثنين، فهي تفرض، بصراحة، على كلّ فرد أن يحبّ الآخرين، إِلاّ أَنّها، ضمناً، تفرض، أَيضاً، على كلّ فرد أَن يجعل نفسه جديراً بحبّ الآخرين، إِذ إِنّه فوق طاقة البشر، محبّة نتاج الحضارة الصناعيّة الشائع ، المتمثّل في فرد أَنانيّ سمج، متكبّر، كسول، حسود، نَهِم، خبيث، شَبِق. ومن ثمّ، فإِنّ الحبّ المتبادل سيظلّ وهماً عسير المنال، ما لم يبذل الجميع جهداً من أَجل الإِقلاع عن العادات التي تحمل الآخرين على بغضهم. إِنّ بناء مجتمعٍ أَفضل، لن يتهيّأ لنا عن طريق ابتداع إِيديولوجيّات طريفة، أو إِصلاح مؤسّساتنا السياسيّة، بل بإِصلاح ذواتنا، وبتحرُّرنا من الرذائل التي تحول دون لقاء بعضنا بالبعض الآخر. حينئذٍ، يمكن للفرد أن يحبّ قريبه، وللعامل أَن يحبّ ربّ عمله، ولربّ العمل أَن يحبّ عامله. وحده الحبّ كفيل بأن يُحلّ، في المجتمعات البشريّة، النظام الذي أَحلّته الغريزة منذ ملايين السنين، لدى جماعات النمل والنحل.

التربية:

أَكثر واجباتنا قدسيّة هو تحقيق الثورة التربويّة التي تُحوّل المدرسة من مصنع للشهادات والأَلقاب العلميّة، إِلى موئل للتثقيف الخلقيّ والفكريّ والجماليّ، والدينيّ، بل تحوّلها مصنعاً للرجولة.

و من أَجل تلقين الناس علم السلوك، لا بدّ من مرشدين يجمعون إِلى معرفتهم بشؤون العالم، نطس الطبيب، وحكمة الفلاسفة، ووجدان الكاهن، وفي الإِجمال، لا بدّ من زُهَّاد راسخين في خبرة الحياة، وضليعين في علم الإِنسان.

أن نتعلم كيف نصبح أقوياء، وأذكياء، ومتّزنين، وكيف نقاوم النصَب ونتحاشى عن إثارة كره الآخرين، ليس أقلّ شأناً من الطعام والنوم، والتعلّم في مدرسة، أو العمل في مكتب أو مزرعة أو مصنع، فالصراع ضدّ الأنانيّة، على سبيل المثال، يقتضي أُسلوباً على جانب من العلم أوفر من مكافحة التيفوس أو الكوليرا الآسيوية. ولا ريب أنّ اعتياد الاعتدال في شرب النبيذ، والكحول، والتدخين، لا يقلّ صعوبة عن التمرّس بالرياضيّات العليا.

اليوم، قد قصرت المدرسة التربية على تثـــقيف العقل ثـــقافة سطحيّة إلى حدٍّ بعيد، هي أشبه بطلاء رقيق يطلى به الشباب على نحوٍ متماثل، ومعظم المربّين يجهلون أيّ نشاط غير عقليّ، وعلى الأخصّ، الحسّ الخلقيّ، وحسّ الجمال.

و الأسرة، عموماً، وسطٌ تربويّ يبعث على الرثاء، فالآباء الحديثون يجهلون كلّ شيء عن سيكولوجيّة الطفل والشابّ، ويتّصفون بقدرٍ كبير من السذاجة، أو الانفعال، أو الضعف، أو القسوة، وكأنّ معظمهم يتميّزون بفنّ إيراث أبنائهم العيوب.

ما يشغلهم، في المقام الأوّل، مهنتهم، وأعمالهم، ومُتَعهم، وكثيرون من الأولاد غالباً ما يتفرّجون، في أسرهم، على مشاهد السماجة، والخصام، والأنانيّة، والسُكر. أمّا من لم يطلعهم أباؤهم على أسرار الحياة هذه، فلا بدّ أن يطلعهم عليها أترابهم.

يفتقر الأولاد لا إلى وصايا وعظات فحسب، بل، وخصوصاً، إلى مُثُل وأعمال.

إنّنا نتعلّم كلّ شيء، وعن طيب خاطر، ممّن نحبّ.

لا يتعلّم الإنسان جيّداً سوى الأُمور التي يؤمن بها، إذ لا يجوز على الطفل لا الرئاء ولا الخداع، فمن رام أن يلقّن الآخرين السلوك الحسن، لا بدّ له، قبل كلّ شيء، أن يكون سلوكه قويماً.

الإنسان، شأنه شان القرد، ميّال بالفطرة إلى التقليد، ولكن يسهل عليه تقليد الشرّ أكثر من تقليد الخير.

كلّما كانت المرأة مؤهّلة عقليّاً وجسميّاً، كان من الأهمّيّة بمكان أن تنجب العديد من الأولاد. وجود الزوج أو الزوجة في حالة سكر أثناء الإخصاب جريمة حقيقـــيّة، إذ إنّ الأولاد الذين يتمّ الحبل بهم، على هذا النحو، غالباً ما يعانون من عاهات عصبيّة أو عقليّة لا سبيل لشفائها.

أمر غريب: إنّ ممارسة الفضيلة لا تلقَّن في المدارس العامّة. أوَ ليس جليّاً، مع ذلك، أنّها شرط أساسيّ لاستقامة الحياة الاجتماعيّة، والحياة الفرديّة على السواء ؟

إنّ تعلّم قيادة طائرة، أو ترويض حيوانات عُجْم، لأيسر من تعلُّم السلوك السويّ، فنحن كائنون معقّدون، ومليئون بالميول المتضاربة.

إنّ القوّة التي نفتقر إليها تتمثّل في منعة العضلات والأعضاء والعقل، وفي انسجامها ومرونتها، كما تتمثّل في القدرة على تحمّل التعب، وتقلّبات العوامل الجوّيّة، والجوع والسهاد والأحزان، والهموم. هي، في الإجمال، إرادة الأمل والعمل، وصلابة النفس والجسد، التي ترفض الهزيمة، بل هي الفرح الذي يتسرّب إلى كلّ كياننا.

الدرب الضيّق:

نوع الحياة أجلُّ شأناً من الحياة عينها.

من أعراض مرض حضارتنا أنّ الإرادة أقلعت عن الصُبوّ نحو الأسمى، وحصرت جهدها في اقتناص خيرات هذا العالم. ومثلما كففنا عن الصراع مع المحيط، كففنا عن الصراع مع أنفسنا.

مثل مياه الساقية، التي على غير تمييز، تضيع في البحيرة، أو في رمل الصحراء، أو في المستنقعات، تنقاد حياتنا مع هوّة رغباتنا وتنساب صوب جميع ضروب الصغارة والفساد، وعلى هذا النحو هي تتحوّل تلقائيّاً، اليوم، شطر الربح، وإرضاء الشهوات واللهو.

اللهو هو المستنقع الذي لا بدّ أن تصبّ فيه الحياة حين تفتقر إلى نظام وهدف. اللهو يتعارض مع الحياة، إذ إنّ الحياة عمل.

قسوة ظروف الحياة، شرط لا غنى عنه لتصعيد الإنسان في معارج الكمال.

و حدهم الكائنون المتمتّعون بالعقل، معرّضون للخطأ، وبالتالي، قادرون على المضيّ نحو الكمال.

ليس من مهمّة أخطر شأناً من ترسيخ قوى الروح، والروح مزيج من إدراك وشعور، من عقل وقلب، نشاط منطقيّ ونشاط لا منطقيّ.

ليس أعسر على الفكر البشريّ من إدراك الواقع، ومع ذلك، فهذا الإدراك لا غنى لنا عنه كي ننسجم مع نظام الكون، وسبيلنا إليه المراقبة والتجربة، وكلتاهما تقتضيان جهداً، وفكرنا يأبى هذا الجهد.

و مع ذلك يظلّ الجهد هو الشرط الأساسيّ لنموّ أنسجة الجسم، ونموّ الروح، ومن ثمّ، فإنّ الأطفال والشباب الذين نشأوا في معزل عن الجهد قد باتوا بشراً ممسوخين وعلى قدرٍ من الوهن بحيث لا يقوون على حمل حضارة الأجداد، وإنّ العقل لديهم، رغم تمتّعه بالثقافة، يبقى هشّاً، سطحيّاً، عاجزاً عن أيّ عمل خلاّق ذي شأن .

نجاح الحياة يستحيل في معزل عن نظامٍ شديد يُفرض على الذات.

الحياة لا تُحفظ وتزدهر إلاّ بفضل الجهد.

و لا أحد يستطيع أَن يصوغ حياتنا نيابةً عنّا.

لا ترحم الطبيعة مدمني الكحول، والكسالى، وضعاف العقول، في حين هي تغدق عطاياها على الزهّاد، والمتيقّظين، والأَذكياء والمندفعين، وخصوصاً على من تحدوهم جرأة التحدّي والتصميم على النجاح، والتأهّب للعيش في قسوة وخطر.

أَمّا من رفض المجازفة، فقد فقد حياته.

وحدهم من تضطرم فيهم جذوة المغامرة كفيلون بإنشاء المدينة الجديدة.

إنّ شريعة تصعيد الروح عنيدة لا تلين. قد تحلّ، أَحياناً، التضحية بالحياة في سبيل الروح، ولكن من المحرّم أَبداً، التضحية بالروح من أَجل إنقاذ الحياة.

معظم الناس يفتقرون إلى القدرة الخلقيّة التي تمكّنهم من الخضوع لقوانين الحياة الصارمة، إذ إنّ أَحداً لم يلقّنهم السيطرة على ذواتهم فانقادوا، منذ صباهم، لجميع نزواتهم. في البيت وفي المدرسة أَلِفوا التحلّل من كلّ انضباط، والتهاون والاستهتار. لم يشدّوا قطّ، إرادتهم، في قسوة، ولفترة طويلة، شطر هدف تلهّفوا لبلوغه. الشباب منهم والشيوخ، الرجال والنساء، الأَغنياء والفقراء، ليسوا سوى عجلات مفرغة من الهواء، أو عجلات داخليّة تنتشر فيها الثقوب. إنّهم يجهلون معنى الزهد، ولكن في معزل عن الزهد، لم يتحقّق، قطّ، أَيّ أَمر خطير الشأن في العالم. سحابة قرون طويلة، رسّخت الآداب المسيحيّة، لدى أَجدادنا، عادة الانضباط، وما زالت، في أَيّامنا، تولي من يتقيّدون بقوانينها بدقّة، السيادة على ذواتهم، وقوّة الحياة.

إنّ قوّة شعب ما تتجلّى في انضباطه، أَيّام السلم وأَيّام الحرب على السواء. إنّنا بإصلاحنا أَنفسنا، نقوى، ولو وسط الآلام والكوارث، على أَن نصلح، شيئاً فشيئاً، محيطنا ومؤسّساتنا.

نجاح الحياة لا يتعارض مع الكثير من الأَخطاء، ولكنّه يتعارض تماماً مع الكذب والخداع والبلادة والكسل.

علينا أَن نُحلّ، محلّ نشدان السعادة، نشدان كمال الجسم والروح، فإذا ما بلغنا الكمال مُنحنا، علاوة عليه، السعادة. شاهِدُنا على ذلك فرح البطل الرياضيّ، وصفاء القدّيس.

فالسعادة تكمن في القوّة، وليس في التراخي والعيش الهيّن .

<u>صُوَر من عالم اليوم:</u>

النخبة وحدها تسهم في تقدّم الجماعة.

يبدو أَنّ الانحطاط العامّ في الذكاء والذوق السليم ناجم عن تأثير الكحول، والخمرة، والإِفراط في شتّى المجالات، وبالعموم، عن انحلال الأَخلاق.

لقد اقترف المجتمع الحديث الزلّة الجوهريّة المتمثّلة في عصيان قانون ترقّي الروح ... المجتمع الحديث، يقاوم رقيّ الروح بكلّ طاقاته.

إِنّ حضارتنا تنهار لأَنّنا سمحنا بأن ينمو فيها، معاً، الثروة التي تؤدّي بالفرد إِلى التفسُّخ، والفقر الذي يحدّ من آفاقه، ويشلّ طاقاته.

في هذه الحقبة نعيش في عالم يعادي الحياة.

<u>من قوانين الحياة:</u>

نواميس الطبيعة تشمل الجميع، ولا ترحم أَبداً، ولا يستطيع أَحد، في أَيّ بلد كان، أَن يخالفها، ولا يلقى عقاباً. إِنّها لا تنذر أَبداً من يتجاوزها، إِذ إِنّ القصاص صامت كالحكم.

ليس من الخطأ محاولة الرقيّ بالمستوى الروحيّ للإِنسان، عن طريق استخدامٍ حكيم للعوامل الفيزيائيّة والكيميائيّة وعلم وظائف الأَعضاء .

النموّ الفكريّ، والنموّ الأَخلاقيّ، كلاهما واجبان. إِلاّ أَنّ الهزال الأَخلاقيّ، أَكثر من الهزال الفكري، هو الذي يجرّ علينا ويلات لا شفاء منها.

ليس العقل، بل الشعور هو الذي يقود الإِنسان إلى قمّة مصيره، فالروح يسمو بالأَلم والرغبة، أَكثر ممّا يسمو بالذكاء.

حين تحيق الأَخطار بحياتنا الجماعــيّة، أَو بحياتنا الفرديّة، وحدها الحقيقة كفيلة بإِنقاذنا.

فقط بفضل طاقته على العدل والحبّ والتجرّد، يستطيع الصغير أَن يسمو على القويّ والكبير، ويستطيع القويّ أَن يمسي كبيراً.

من الثابت أَنّ النيل باستمرار من كلّ شيء، ومن كلّ إِنسان بالنقد، والنميمة، وعادة اختلاق التخرّصات من أَجل الإِضرار بالغير، كلّ ذلك ليس من الأَخطاء الطفيفة الشأن، فالرجال والنساء الذين ينحدرون إِلى مثل تلك الرذائل، إِنّما هم عناصر انحلال، وبالتالي، إِنّهم أَكثر من يصيب المجتمع بالوهن.

أَكثر العادات القبيحة وبالاً على التقدّم الروحيّ، عادة الكذب والدسيسة والافتراء على القريب، وخيانته، وسرقته، وادّعاء كلّ شيء للذات، واستمالة كلّ شيء للمصلحة الخاصّة الآنيّة ... فالروح لا يزدهر أَبداً في جوّ الفساد والكذب.

إنّ الحسد يسبّب كوارث أخطر شأناً من وباء الطاعون، إذ يبذل الحسود من الجهد في سبيل الإضرار بالآخرين أكثر ممّا يبذل في سبيل النهوض بحاله. الحسد، شأنه شأن الغيرة، تحظره علينا قوانين الحياة، فهو، في، جوهره، مدمّر.

الحقد يهدم كلاًّ من الجسم والروح.

بوسع المال إرضاء جميع أهوائنا، إذ إنّ أهواءنا دنيئة.

إنّ الذين يرومون التصعيد إلى أرفع ما يمكن للبشر بلوغه من قمم، يتوجّب عليهم العزوف عن كبرياء العقل، والتخلّي عن توهّم السلطان المطلق في الفكر الواضح، وإنكار الإيمان بقدرة المنطق المطلقة، وأخيراً، عليهم أن ينمّوا في ذواتهم الإحساس بالجمال وبالمقدّسات.

فقط على أجنحة التصوّف تستطيع الروح أن تكمل رقيّهـــا.

الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على العمل، لا العقل، وليس الفكر هو الذي يولي قدرة على العيش وفق نظام الأشياء، إذ إنّه يقتصر على إنارة الطريق، ولكنّه، أبداً، لا يدفع إلى الأمام. رجال الفكر ينهجون في الحياة، مثل مقعدين يشاهدون مباراة، ويرون الهدف بوضوح، ولكنّهم يظلّون عاجزين عن الانطلاق نحو الحلبة.

إنّ التشدّق بالألفاظ مضيعة للوقت عقيمة، والولع بالأوهام المجرّدة يُنجب العياء.

الهدف الذي ترمي إليه الحياة، هو الروح، أيّ سموق العقل والحبّ في داخلنا، وفي العالم الأرضيّ. على البشريّة كلّها جمعاء أن تتطلّع، اليوم، صوب نفس السماء، وأن تنهج الدرب عينه، وإلاّ هوت في الخواء، إذ طالما ظلّ الناس يتّخذون لوجودهم هدفاً باطلاً، فإنّهم سيبقون عاجزين عن التفاهم، وسيمزّق بعضهم بعضاً، وحينئذٍ ستبلغ أكثر الأجناس نبلاً نهاية انتحارها. لا بدّ لنا، إذن، من التيميم شطر الهدف الذي تحدّده لتطوّرنا سُنَن الطبيعة، فإذا ما توافق وجودنا مع هذه السنَن، أمسى العالم القاسي رفيقاً وصديقاً، فالحياة لا تهب الحرّيّة والنجاح والفرح إلاّ لمن يخضعون لنواميسها، ويدركون أهدافها. وحدها الحقيقة قادرة على إنقاذنا.

الموت، إن نحن شئنا، يمكن أن يكون انغماس النفس في بهاء اللّه.

في حين أنّ أحجام الأجسام تختلف اختلافاً طفيفاً بين إنسان وآخر، هناك، بين أشكال الروح المتباينة، من الشقّة، مثلما بين وكر الخلد الترابيّ، وقمّة إيفرست.

إنّ كلّ وجود، مهما كان وضيعاً وقاسياً يصبح وضّاءً، وضاحكاً، عندما يشرق عليه مَثَلٌ أعلى من جمالٍ وحبّ.

دعـــــــــاء

(من " تأمّلات " لألِكسي كاريل)

فلأكن، يا ربّ، الأَداة التي تستخدمها محبّتك.

لقد كانت حياتي صحراء لأَنّني لم أَعرفك، فائذن، يا ربّ، أَن تزهر الصحراء، رغم الخريف، واجعل أَن تكرَّس لك كلّ دقيقة باقية من أَيّامي. إِنّني لا أَبتغي لنفسي شيئاً سوى نعمتك.

إِنّني، وإِن كنتُ أَعمى، أحاول اتّباعك، يا ربّ، فدلَّني على السبيل.

تولَّ يا ربّ، زمام حياتي، فأنا تائه في الظلمات، وكلّ ما ستلهمني مشيئتك عمله، سأعلمه.

عليّ أَن أَتقرّب منك، يا ربّ، بكلّ نقاء واتّضاع.

كيف لي أن أعوّض الشرّ الذي الحقتُه بالآخرين، وأن أَعمل، اليوم، الخير الذي أَحجمت عن عمله ؟

أعطِني الفهم والنور، كي أَقوى على تلبية ندائك.

أَيّها السيّد، أَنا لست سوى أداة لا جدوى منها، فإن شئت استخدامها، فلتكن مباركاً، وإِن نبذتها، فلتكن، أَيضاً، مباركاً.

كم أَنا آسف، يا ربّ، لأَنّني لم أدرك من شؤون الحياة شيئاً، ولأَنّني جهدت في محاولة فهم ما لا فائدة من فهمه.

فالحياة لا تقوم على الفهم، بل على الحبّ، ومساعدة الآخرين، والصلاة والعمل.

إِجعل، يا ربّ، أَلاّ يكون الوقت قد فات.

كم هو مريع، يا ربّ، أَلاّ يتّبع المرءُ شريعتك !

الفـــــهرس

من هو أَلِكْسي كاريل ؟.....
لورد .....
الرحلة إِلى لورد .....
أَشفية لورد .....
الصلاة .....
– تمهيد .....
– مقدّمة .....
– ما هي الصلاة ؟ .....
– كيف نصلّي ؟ .....
– أَين ومتى نصلّي .....
– تأثير الصلاة .....
– النتائج البسيكوفيزيولوجيّة .....
– آثار الصلاة العلاجيّة .....
– معنى الصلاة .....
– خلاصة .....
مقاطع من مذكّرات أَلِكسي كاريل .....
مقتطفات من " نجاح الحياة " .....
مقاطع من " خواطر في نهج الحياة " .....
– التضحية: .....
– الفضيلة: .....
– المحبّة: .....
– التربية: .....
– الدرب الضيّق: .....
– صُور من عالم اليوم: .....
– من قوانين الحياة: .....
دعاء .....

هذا الكتاب

أَلِكْسي كاريل (1873– 1944) طبيب وبحَّاثة فرنسي، نال جائزة نوبل للطبّ عام 1912، وهو لم يبلغ بعدُ الأَربعين .

وممّا رسّخ شهرته العالميّة كتابه " الإِنسان، ذلك المجهول "، الذي تُرجم إِلى عشرين لغة، وقد طواه على كنزٍ ثرّ من آرائه واكتشافاته، وأكّد فيه إِيمانه بأَنّ الإِنسان كلٌّ متكامل من جسم وعقل وروح، لا يستقيم له هديٌ ولا ازدهار إِلاّ في نموّ جميع هذه العناصر معاً، وتضافرها على توازن وتناغم.

من الأحداث التي كان لها وقع بليغ في حياته، وأثرٌ حاسم على نهجه الفكريّ، حالة شفاء عجيب في " لورد " عام 1903، كان لها شاهدَ عيان، ورواها بعنوان " الرحلة إِلى لورد".

هذا الكتيِّب ينطوي على تعريب لهذه " الرحلة "، ولمعالم من رحلة أخرى طويلة في عالم الفكر والروح قام بها أَلِكسي كاريل سحابة حياته التي وقفها على معرفةٍ أَبعد عمقاً للإِنسان، وخدمةٍ أوفر صدقاً لقضاياه، وتقدّم إِنسانيّ سليم متوازن .